عباس جوّاد
أمطار
كانون الثاني
رواية
دار ليلى
كيان كورب

٢٣٧٩،٩

أمطار كانون الثاني

عباس جواد

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع - دون موافقة كتابية - يعرض صاحبه للمساءلة القانونية

الكتاب:

أمطار كانون الثاني

المؤلف:

عباس جواد

★★★

الإشراف العام:

محمد سامي

★★★

المهندسين-12 شارع أحمد عرابي-الدور 3-مكتب 8
هاتف: 23885295 (012) (002)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com **الموقع الرسمي:** www.darlila.com

عباس جواد

أمطار كانون الثاني

دار ليلى
كيان كورب للنشر والتوزيع

أولئك الذين ينتظرون بأمل، أو بغير أمل، أولئك الجنود الذين لم يعودوا من الحرب.. والذين عادوا أيضاً..

أمهاتهم..

عشيقاتهم..

أطفال الأرصفة، وتعساء الليل، النسوة المضطهدات، الرجال المنسيون، جداتنا وحكاياتهن، أزقة مدننا، أصوات الماضي، أشباح الأيام الراحلة، الذكريات الدافئة، النخلات الذابلات، ضحكات الأطفال، ظلال المرهقون... ثمة حياة، أنتم تصنعونها.

"كل الامتنان لمن يساعد بصمت، ويعمل بقلبٍ لم يلسعه الرياء

شكر وتقدير للأستاذ ربيع البصري"

لوالديّ.. أولاً

"القانون هو من اختراع الأقوياء من الرجال ليقيدوا ويحكموا الضعفاء منهم"

روسو

الـCD الأول

"لم تكن حزيناً بما يكفي كي تصغي لكلام عجوز"

1

الرحيل الأخير إلى الله، أتمت العجوز حفر هذه الكلمات الحزينة على قطعة مصنوعة من الخشب الأصفر، مصقولة بحيث تظهر بريقاً حين يسقط عليها النور، تحمل اسم رجل و تأريخين يفصل بينهما ستون عاماً، رفعتها من خيط في ظهرها بعصاها المتيبسة وعلقتها على مسمار فوق باب الغرفة **101** من الطابق العلوي لفندقها الرخو التائه في وحل الليل المفعم بعواصف جامدة، تخيم فيه العتمة الباردة، قفر بالحياة، لم تعد غرفه ذات الجدران المتآكلة سوى آثار شاحبة، تسير العجوز في ممراته المتخمة بالظلام، تمسك عصاها بيدها المرتعشة، ترن مع كل خطوة تخطوها، وبيدها الأخرى شمعة صغيرة، عسى أن تذيب جزء من تلك الغيوم السوداء المحتشدة التي تتخبط فيها، لتتمكن من العودة للطابق الأسفل، تلتفت كثيراً، أصوات متعددة تصدر مختنقة من جوف صمت الفندق الرهيب، أزيز حشرات، شغب فئران، مواء الهررة الدافئ، تساقط قطع من السقف الكونكريتي العتيق، تثائبات الرياح الشتوية الصادرة من ثقوب زجاج النوافذ، او ارتجاج النوافذ نفسها، إضافة إلى أصوات تتوهمها، كذلك صوت قدميها المتعبتين، المتشنجتين، ارتجاف أناملها يشير إلى أنها خائفة رغم تظاهرها بالشجاعة لتكمل

طريقها، تسرع من مشيها المجهد، عينان ضئيلتان وعصا متيبسة ينبثقان من ظلمة إلى أخرى خلف ضوء الشمعة المضمحل، تتوقف عن السير لتنظر في الزوايا تتقدم بحذر، تقدم الشمعة الهزيلة لتتمكن من النظر جيداً، ثم تعود دون أن ترى ما التمسه قلبها، عينان طافيتان في الظلام يراقبان العجوز وهي تغرق شيئا فشيء مترنحة على درجات السلم العريضة، يغمضان حينما تتوقف و تلتفت فجأة، تكمل السير المنهك، بين الجدران المتعبة من الوقوف الطويل، بعد ما قرضتها الفئران لتحفر لها مخابئ آمنة، الفئران تتجول في الفناء متى ما يحلوا لها، السيدة ودودة معهن وتراهن كائنات حنونة وبائسة، فيرق لهن قلبها، تطعمهن وتداعبهن، تبعد عنهن القطط المتسكعة العنيدة قدر استطاعتها بكل قسوة، تركلهن بعنف دون ان تخدع بأعينهن حين يلمعن بصمت بريء، أبداً، لكنها لا تقوى على شراستهن إذا غضبن إذ يتملكها الخوف، تشعر كأن روح شريرة تتجسد أمامها فتستسلم للأمر حتى لو انقضت على إحدى الفئران.

رفعت السيدة بصرها عن الصراعات الخفيفة تارة والوحشية تارة أخرى بين سكان قلعتها المهجورة، مكتفية بفأرة واحدة رمادية اللون، جسمها البدين يبدو طرياً، حالها أفضل من بقية الفئران المتشردة، فهي كطفلة بالنسبة للسيدة، تخرجها من قفصها الصغير كل يوم لتنظفها وتقبلها ثم ترجعها لتلتهم كل قطع الجبن التي تحضرها لها، وضعت

قفصها الحديدي على طاولتها المدورة المغطاة بقماش ابيض مائل للون الوردي، في مقدمة فندقها الهرم، تجلس مقابل طاولتها أغلب النهار، ربما يأتي أحد ما، ليختبئ في هذا المكان القاتم، منظره القبيح يطرد شهية العيون محال أن يدلف إليه شخص مهذب، دائماً ما يأتيه الهاربون من السجون، أو الفارون من العدالة، مرتكبو الجرائم كالقتلة، و ذوو السرقات الكبيرة، يجاوره زقاق ضيق، قد يبدو كطريق يؤدي إلى عالم آخر، فعندما تنظر إليه لا ترى غير فسحة واحدة تطل على السوق، ونهايته كتلة سوادٍ متراكم، لا تظن أنك ستجد مخرجاً لتمر منه، طريق لا يؤدي لشيء، أو يؤدي بحياتك، هواؤه نتن، و براز الهررة والفئران والكلاب يغطي أرضه الرطبة الموحلة بمياه الأمطار مباشرة، أو قد تأتي المياه بطريقة غير مباشرة من مرازيب البيوت، إضافة للنفايات التي يرميها الناس من فوق بيوتهم، أكياس، أجهزة اتصالات معطوبة، إطارات ممزقة، علب عطر جسم تدحرجها الرياح، مساحيق، أحمر الشفاه، صبغ أضافر لونه بنفسجي فاتح، ملابس داخلية بالية، أحذية متقطعة تبدو نسائية، مغازل شعر مكسرة، أشلاء لآلات موسيقية – بيانو وآلة العود– دمى صغيرة يأكل العفن ابتساماتها، تتدلى خلفها ضفيرتا شعر ملطخ بالبراز، هيكل لماكينة خياطة يقرضه الصدأ، حقن، أشرطة حبوب طبية، أكياس مغذي، قناني ويسكي، بيرة، كوكاكولا، ماكينات وشفرات حلاقة، فك لأسنان اصطناعية، قلادة ملوثة مازالت

محتفظة بلونها الذهبي، خاتم سقطت ياقوتته الزرقاء بجانبه، حقيبة مدرسية، محبرة ما يزال الحبر ينسكب منها ساخناً، CD مكتوب على واحد منها موسيقى كسارة البندق، وأخرى مكتوب عليها تيتانيك، بالدقة الـ HD، كثير من الأفلام والسيمفونيات مرمية في هذا الممر المخيف، ملك وقلعة صغيران أبيضا اللون يعودان للعبة شطرنج سقطت من أعلى نافذة، مبخرة كهربائية، شموع لعيد ميلاد مضى منذ يومين، بهتت ألوانها البيضاء والصفراء، باقة ورود حمراء تكاد أن تتفكك، يرشها مطر خفيف، تندي قطيرات تسقط على برعم صغير ينمو أسفلها، لنبات في أولى أيامه لم يتضح نوعه بعد.. رميت من إحدى النوافذ المختبئة في العتمة سكين نبتت بالأرض مباشرة وبقوة، كما ان مرشحات الهواء المصطفة أعلى الجدران تطلق زفيراً مشتملاً على فضلات هوائها الخانق لما يحتويه من رائحة الدهون المتراكمة بين أجزائها، يجتمع الذباب حولها إذا كفت عن الدوران، ثم يتطاير كالشرر حين تهب عواصف الهواء بدوي هادئ.

تركت العجوز قطعة خشبية مصقولة معلقة أعلى مقدمته مكتوب عليها "ملهى الحيوانات الليلي" أكثر من مئة كلب سائب يجتمع كل ليلة هنا، بعد أن تقضي يوماً مهولاً في التسول أو الهرب من صيادي الكلاب، الركض خلف بائعات السمك، البحث عن فيء للنوم، الاختباء تحت جرارات الحصاد من أمطار كانون الثاني، سرقة الدجاج في المزارع،

ثم الفرار من بنادق المزارعين، لتجد نفسها تحت عجلات الحافلات المسرعة مما يدفعها للجري برعب، مطاردة الأطفال لها في الأزقة الضيقة.. يلم الليل الكلاب الضائعة و الجائعة، في هذا الممر البائس، كلها كلاب نحيلة، تفتش الأرض عن لقمة طعام، تنام في الزوايا المظللة برفوف ملصقة على الجدران، يطول نباحها قبل النوم، قد تلهو أحياناً أو تتشاكس، حينها القطط تلوذ بالفرار، تلجأ إلى فندق العجوز آمن مكان لها، بعضها يصعب عليها اللجوء للفندق، فتدخل أقرب بيت لها لتفاجأ بالركل والضرب العنيف، تُخرج بقساوة لتستقبلها الكلاب بأنياب مكشره، تمزقها بمخالبها الحادة، ثم تترك لتحللها الشمس، من النادر خروج الشمس في أشهر البرد القارس، فتنتشر رائحة تعفن القطط. في النهار تختفي الكلاب، يكون الدور للهررة والفئران أو للقطط مع بعضها، تأكل ما يقذف من أعلى البيوت مما يرميه الناس من علب ملتصق حول سطوحها الداخلية ما يدفعها أن تتصارع لأجل أن تدخل لسانها في العلبة عسى أن تحظى بلقمة طعام لتخدع بطنها بأمل كاذب، لا يمكن أن تجد أحدهن ناجياً من آثار المخالب في جسده النحيف.

صحف ومجلات كثيرة مغبرة ملتصقة على كل جدران الفندق، واحدة فوق الأخرى، ملوثة بالرماد، إضافة إلى بصمات أيادٍ أو بالأحرى يد طفل مليئة بالطين لم تدع فسحة بالجدران إلا وتركت عليها أثر تلك اليد الصغيرة، كذلك العناكب التائهة، ملأت الزوايا ببيوتها الكثيفة، لا

يمكنك أن تلمس شيء في الفندق دون أن تجدها مغلفة بخيوط العنكبوت الهشة كالتماثيل الفخارية المتروكة في الممرات والغرف وفي الصالة قرب الباب الرئيسي، طيور محلقة، وأخرى نائمة في أعشاشها تلم أفراخها بجناحيها الوفيرين، خيول مجنحة تقف في حالة هجوم، فتاة تجمع التوت وخلفها صياد يرمق للأعلى، طفل جالس خلفه جناحان كُسر نصف أحدهما، غزلان واقفة وأخرى راكضة مازالت تحتفظ بقرونها المتشابكة رغم أن خمسين عاما مر على وقوفها الطويل، جعلت هذه الآثار الجميلة تنزع لمعانها وتتخلى عن ألوانها الزاهية وهي تشهد أيام الدمار هذه، أيضاً لوحات مغطاة بالغبار، ثريات عملاقة معلقة في قاعة الفندق الواسعة، باتت كأنها معلقة في مشانق، إذ لا نور ذهبي ولا حتى مصابيح، مجرد زجاج مكسر، لا توجد روح جميلة هنا، فقط أرواح ملعونة وأشباح تأن كل أوقاتها، تعيش في ذكريات أيامها الراحلة التي جعلت حياتها جحيم، كابوس مستمر لا تمتلك قدرة لكي تصحو مجدداً كما كانت في الدنيا، كل الأشرار لا يملكون قدرة أو إرادة ولو أدنى قدر، وإلا لما استسلموا للآلام الخالدة، والأوجاع المتشربة في عروقهم ليبقوا مسعورين بلا أجل.

العجوز تتواجد في الوهم والهلوسة أكثر مما تتواجد في الواقع، تحس بدمها الصدئ يبرد أكثر، وجلدها كصفائح أهلكها الغبار، يرتج كله، إنها تخاف، تخاف من كل شيء أو من لا شيء، اعتادت الظلام

المكوم، والسكون الممتعض يسكن فندقها في كثيرٍ من الليالي الراكدة في الشتاء حين تخلو الشوارع والأزقة يهرب الناس من عنف الجو ليختبئوا في بيوتهم يوصدوا ابوابها جيداً، الأب يعد أفراد عائلته واحداً واحداً، يحركه الخوف ليمنعهم من الخروج، ربما بسبب البرد، أو الصواعق، الظلمة العميقة، خلو الشوارع والأزقة من أنفاس الحياة الاعتيادية، أو فقط تلك الأفكار المتطفلة، الرديئة، التي تبحث عن وجودٍ يحتويها، لتربك أي فكرة تتحدث عن السعادة التي تفوح رائحتها من المدفئة حين تلتهم حرارتها كل موجة برد خاتلة، وهم مجتمعون في ظل الدفء والأمان يستمعون لحكاية جدتهم الطويلة.

العجوز توقد مدفئتها النفطية، وتتركها ملتهبة كل أيام الشتاء، تضع عليها قدح صغير يحوي شراب مليء بالأعشاب الطبية لمعالجة الزكام، كما يفعل ذلك اغلب الناس حسب قولها هي، فالزكام والقيء لا يفارقاها ودواؤها لم يعد ينفعها لكنها ترضي نفسها بذلك لا أكثر، أنها ليست أكثر من دفتر مذكرات يقلب الهواء اوراقه، عيناها ملئا بدموع جامدة و قلب عفن بذكريات كئيبة، تسببت في هلاك أيامها وجعلت حياتها نفقاً مظلماً تسير فيه نحو الموت فقط.

سيكون هناك فرح بعد هذا، كما كان يقول الراديو الأحمر الصغير الذي احتفظت به السيدة العجوز إلى الآن مع كومة أغراضها، تتذكر أنها كانت تنام على صوته أغلب لياليها، تضعه تحت أذنها لتسمع بشكل

جيد، قد تتعب أحياناً دون أن تجد شيء خال من الوشوشة المعتادة، تحسه يعاني كالمريض ويطلق أنفاساً متكررة، أو يتلكأ في لفظ الكلمات، كأن سماعته فم غول لا تفهم صوته، كما في الأيام المزقة بين اضطراب العواصف المطرية، منها ليلة صاخبة بعويل الغارات الجوية السابحة في جوف السماء المصقولة بقطع غيوم داكنة، حينها غارت النجوم، اختفت تماماً، إلا النجم المذنب الأحمر لم يحجبه شيء، مازال يشزر الأرض، الفتاة مليئة بأخبار سيئة عنه، دائماً ما تتناقله العجائز في حكاياتهن المفعمة بمغامرات الرجال وهم يصارعون القدر ويقتلون الوحوش، يحلقون في السماء ويغوصون في البحار، يتيهون في الغابات والصحاري، يفعلوا كل شيء لأجل العشق ذلك اللهب المتقد للأبد، يتمايل بهدوء مع الايام، لم يكن للفتاة أن تعيشه دائماً بسبب تلك الغارات كأنها تلغي فكرة الخير والسلام ويؤكد ذلك صراخ القنابل: تباً للحياة، تباً للحب، الراديو حينها لا يعرف ماذا يقول غير: وش وش، بينما الفتاة تغط في مستنقع بؤسها، كالبجعة الوحيدة في شاطئ ساكن، تحت ظل العصر، تخاف غروب الشمس، تنتظر مجيء الصياد أكثر من انتظارها مجيء الليل، فالرحيل أهون من الضياع، قلبها الزجاجي يسقط لقاع جسدها الجاف كلما خدشته الأفكار المخيبة عن زوجها، يخبرها نسيم عائد من الحرب أنه اختفى مع أولى حلقات الدخان، تاه في دوامتها، امتصته بكامل جسده، حتى آخر شعرة في رأسه، لا تحلمي بعودته، لم يعد إلا

شبح، لا تغذي البعد بينكما بأمل رجوعه اليائس.. أصيبت بكآبة امتصت الألوان من عينيها، تنتظر بهم ثقيل حتى تهدأ الحرب وتنحل السحب السوداء، وبعد فترة من موسم أمطار مستمرة، ودوي مدافع طائشة، خف غبار الأيام الرمادية، السماء رطبة منذ أمطار الأمس، بعض بقع الغيوم تنتشر كقطع اسفنجية، تشع بنور الشمس الخافت، المختفي ورائها، تكشف عن عينين لماعتين تجمع فيهما كل البؤس وهما يرمقان المدينة من النافذة، احتضنتها مسحت الضباب من على الزجاج المصدع بيدها الناعمة، تأملت طريق الرجوع، عله يعود من خلل الدخان، يخرج من ذاك الدمار الرهيب، بقايا كوخ يأتي منه نباح كلاب ربما وجدت جثة مشوية بنار القنابل، نهر محاط بالأشجار المتفحمة الأغصان يعج بالغربان المتشائمة، تندفع بتباطؤ نحو السماء، تعود متثاقلة، أبقار ميتة، يدور الذباب فوقها، وعجوز تلقي اللوم على حظها، بعد أن احترقت حديقتها وسقطت نخلاتها المشرعة، رجال يطفئون الحرائق الجائعة، أطفال ممزقوا الثياب، يبكون منفردين بلا أمهات، مجموعة شباب يبحثون عن أجزاء الجثث بين حطام البيوت، حينها تحدق بالسماء وتشعر بالخذلان، تسمع كلمات الناس المتعضة، اللعنة للعالم النائم.. لم يجدوا وسيلة لتخفيف الضيم غير الشتم واللعن، أيضاً رأت زوارق خشبية بعدد هائل يحصى بعشرات الألوف، تمر محتشدة في ذلك النهر البارد، تجدف في الضباب أكثر مما تجدف في مياهه الملوثة، كل

منها في داخله صندوق خشبي مكسو بالعلم الوطني، شاهدت الفتاة ذلك المنظر التعيس، إنها العودة من الحرب، استمر ذلك السرب بالسير المنتظم، ثم رأت زوارق بلا أعلام، تحمل عدة صناديق، ولا تبالي إن سقط إحداهما، ملأ ذلك المنظر عينيها اللتين لفحهما الذبول ومازال فيهما آثار دموع البارحة فأزالتها قطرات حارقة تساقطت كالندى، شاهدت زوارق تحمل بضاعتها بأكياس، ثم زوارق بلا أكياس، فقط بقايا جثث ساخنة، تخضب بالدم، يغطيها الغبار، أقدام، رؤوس، أشلاء ممزقة.. كأن سيرهم منجذباً بقوةٍ نحو شيء ما، فلم يتوقفوا، أو على الأقل يبطئوا قليلاً استجابة لصراخ الناس المطالبين بأجساد أولادهم، هب الناس إلى الشاطئ ارتموا في الماء، فجأة ضجت السماء بصوت رهيب، غارة جوية، أذهلت العيون، تتعقب القوارب لتكمل الهزيمة، ألقت عدة قنابل في النهر، لتزيد عدد الجثث، امتلأت المياه بأجساد طافية طارت أرواحها نحو السماء، قوارب محطمة، أسماك ميتة، دخان كثيف، نيران تلتهم الأشجار على حافة النهر، أصيبت الفتاة بجراحات بسبب تكسر الزجاج ووجدت نفسها مرتمية على سريرها تحت سقف تملؤه الثقوب، يكاد أن يسقط، وبجانب السرير المبلل بالمطر الراديو المحتفل، يتقياً بعضاً من الأسماء، بصوت تمجيد مفخم قد تخص القادة، يصرخ حيناً ثم يغني حيناً آخر، كأنه يبث من محطة العدو لا من محطة البلاد، بعض كلامه عن الابرياء الذين عادوا بالقوارب، يذمهم، ينعتهم بالجبن، ثم يفخر

بالوطن، يدعو كل الشعب للذهاب للقتال، حتى النساء والأطفال، ومن لم يذهب فهو خائن، والخائن يجب على الحكومة قتله، لا عيش مع الحرب إلا ببندقية تمزق غيومها الداكنة، كل شخص عليه حمل البندقية فالحياة عبارة عن معركة، هناك الكثير من التوابيت بانتظار المقاتلين، بعد كل ذلك يصرح بأن هذه التجربة المرة سترتقي بالبلد إلى العلو.. ثم عاد ليضج بالصياح والغناء، لم تكن الفتاة لتطيق سماعه، استاءت وغضبت، مدت يدها الملطخة بالدماء تخالطها قطرات المطر الملوثة لتقطع أنفاسه، رمته بقوة على الجدار بعد أن لفظ آخر عبارة، سيكون هناك فرح بعد هذا.

أيام بطيئة تجرجر لياليها المثقلة بالكوابيس، لتزعج فتاة بريئة، ذبلت الورود في حياتها، وباتت محاطة بهالة سوداء لا تكاد تفارقها، تلم حولها حزن الماضي ورداءة المستقبل المخيف، تستلقي على سريرها، ترمق السماء الحالكة، بعد أن سقط سقف غرفتها المصنوع من الخشب، ترنو للنجوم النائمة، تحاول عدها، تطلق عليها أسماء من راحوا ضحية الحرب، لتعدهم كل ليلة قبل أن تخلد للنوم.. لم تقوَ على مقاومة وحدتها، تجزعها نوبات أسى عميق، تندي عينيها بحرقة، كلما عادت للوراء، بقيت على حالة من الصمت الحزين والشعور بالعزلة، تتأثر عاطفتها وتدفعها للبكاء لأقل الأمور، ليتني بلا ذاكرة، بلا ماضي، كالطيور، والزهور، ليتني لا أتذكر، ليتني فتاة رسمت على ورقة تحلق

في الهواء، تغني للنجوم، البراقة، في ليلة سماؤها صافية، الجو ساكن، الأشجار نائمة، تبدو كتل غامقة من بعيد، ملأت عينيها السماء المزخرفة بالنجوم، كأنها شموع مبتهجة تتمايل في بركة هادئة، تدور بين أرجاء الهواء سرج الليل المضيئة، ثم تنتثر رماداً يحمل عنواناً للابتسامة والحياة الآمنة.. تخالجها الأفكار وهي ترمق النجوم المنغرسات في الظلام، كأنهم أشباح أو ملائكة، ظلال تلمع كالماس، تزينهم أجنحة كأشرعة الشمس، يدورون في الفضاء، يطيرون نحو الأرض، عادوا لبيوتهم، ليطمئنوا على عوائلهم، يتفقدوا أطفالهم، يروا ما حل في غيابهم، يطوفون حول البيوت، يضيئون المدينة كلها.. اندفعت الفتاة نحو النافذة، احتضنتهم بعينيها الضاحكتين من خلف غيمة هم، تغني لهم:

لن يموت من تحب، فالحب لا يقهره الموت

فهو آلام باردة.. ودموع راكدة

وبقية حزن

سأدفنها في النسيان

تدور أغنيتها كريح خائبة، بين أشلاء المدينة، لتواسي الأسارى المقيدين بالسلاسل يقادون عراة إلى السجون، بعد أن تركوا عشيقاتهم بانتظارهم، والأمهات اللواتي تجعدت قلوبهن من الأسى، الزوجات

يتركن كل ليلة شموعهن البائسة في النهر، العيون رطبة بدموع الفراق الذي حل بدون وداع، مع صاعقات الحرب، أطفأت الابتسامة، ومسحت الألوان، الأطفال يعانون من قساوة أمراضهم، وجروحهم العنيفة، الأب لم يعد يُعد أفراد عائلته في الليل، خوف أن يبكيه من فقدهم، ولا حتى هناك جلسات دافئة قرب المدافئ ولا حكايات العجائز الطويلة، الفلاحون أيضاً يرثون مزارعهم المتفحمة، بدأت أيام الجوع، لا تدري متى تأكل، أو ربما لن تأكل بعد، حينما يكون أملك في النجاة الموت، ماذا يمكنك أن تكون... الفتاة لا تدري كيف تمضي، تنتظر كل ليلة تلك الظلال المنيرة تهبط من السماء لمدينتهم، تبادلهم حزنها بابتسامة و أغنية، ثم تتركهم يحلقون للسماء ليرجعوا نجوماً متلألئة.

يمر الربيع والصيف، الخريف، الشتاء، كبواخر تشق طريقها خلف الدخان، لا تحمل هدايا، أو مفاجآت جميلة، أو رايات تلوح بالسلام، كل بضاعتها أمراض، فقر، جوع، قنابل جديدة، اعتقالات عرفية.. تمر هذه الفصول من فوق حطام المباني الصحية والخدمية، جسور مهدمة، النخلات المنتحبات، مزارع محترقة، مياه ملوثة بالقاذورات، أعمدة كهرباء متساقطة، متشابكة الأسلاك، أناس يقضون أوقاتهم بالعراء، أنين أطفال، بكاء العجائز، أيضاً كثرت السرقات، ازداد التسول.. باتت الأيام تسير بلا أرواح، ساعات صعبة تقود الرحلة

نحو حياة عليلة جداً.

نفضت أشجار الخريف الثالث من بدء الحرب أوراقها المصفرة، تناثرت مع هبات الرياح الناعسة فوق الشوارع الترابية الفاصلة بين المدن المليئة بالأشجار، تدور بهدوء في الأزقة الضيقة، تبشر بتحسن الأوضاع بعض الشيء فعاد المختبئون في الملاجئ لبيوتهم مع بدء الناس بتبديل زجاج نوافذهم المكسر، يصلحون أنابيب المياه، يغيرون بعض أبوابهم الممزقة بالرصاص، يحاولون إنشاء الجسور من جديد، يعيدون الحياة لمزروعاتهم، ينقذوا ما تبقى من النخيل، يوقظون أشجار الورود النائمة على الأرض، يجعلوها تتكئ على عصا مستقيمة، كذلك يخرجون بأبقارهم وأغنامهم إلى المراعي بعد أن ظهر العشب فيها، الأطفال عادوا يركضون في الأسواق، يلعبون ويضحكون، النساء عدن يخطن ويغزلن، قوارب صيد السمك والطيور عادت للنهر، تمر فوق تموجات المياه العريضة كل مساء، أرى عجوزاً يجدف ببطء بجانبه طفل يجر رغيف خبز بأسنانه، معهم رجل يتولى مهمة الصيد، ثم تختفي القوارب مع رحيل شمس الغروب وهي تغرق في النهر بتمهل تاركة لونها يغير لون النهر ويغطي السماء، تعدو الليالي بلا دوي مدافع، وبلا غارات جوية، مع رشات مطر خفيفة ترن على الشبابيك الموصدة، تستحيل إلى رذاذ تشتته هبات الريح، تسمع استغاثة الحيوانات تلوذ من العواصف،

تتلاعب الرياح بأصواتها، تقترب وتبتعد عن أذنك، لا يدعك البرد تترك فراشك الدافئ لأجل قط أو كلب طليق، ثم تجد الصباح الخريفي أمامك بشجيرات منحنية، وأوراق متناثرة، أعشاش عصافير متساقطة من أعلى الأشجار، غبار قليل يلوث الهواء، لم تكن الفتاة مستعدة للقيام بأعمال تنظيف لبيتها المرمي في أطراف المدينة التي تبدو من بعيد كمزرعة تحتضر، لولا قيام بعض المزارعين بصنع حياة جديدة، أعادوا للأرض نشاطها، حتى تمكنوا من زراعتها بمختلف المحاصيل، ساعدهم الطقس المناسب، الأمطار المتعاطفة مع تلك السنابل والشجيرات، الرياح تهب بلطف محملة بعبق الزهور والثمار، تداعب وجوه الأطفال وهم يركضون مبتعدين عن أمهاتهم المنهكات في الأعمال الزراعية، شاركت معهن لأحصل على بعض الأموال، وأيضاً كنت أبحث عن منفذ لتلك العزلة المظلمة، لأنفض حطام الذكريات التي تراكمت على حياتي، أحببت نسيم المزارع كثيراً، يجعلني بلا ذاكرة، بلا ظلال تطاردني، أتأمل النهر من جديد، بلا رعب، أرى السماء صافية كضحكات الأطفال البريئة، لا يشوبها شيء، أحسست ببرودة قطرات العرق على جبيني، يمكن لعشب الأرض أن يريح مؤخرتي أفضل من أي مقعد آخر، شعرت بالحرية، في وسعي أن أحلق مع الهواء كطير أبيض، أو بالونة وردية..

أرجع في المساء بذهن صافٍ، لم أعد أرى تلك الغربان المتشائمة

تحلق فوق رأسي، كما اشتريت كناري صار بمثابة صديق لي، وضعته في قفص على النافذة، وعلقت حولها شجيرات مرنة، ونحيفة، خضراء دائماً غطت أغلب جدران البيت بكثافة، تمتد من الأرض للأعلى متسلقة على الحبال التي أضعها لها، اعتنيت بها لأنها تلهمني السعادة والأمان، لا أحزن بعدها، سأعيش بسلام دائم، أعتدت أن استيقظ مع صياح الديك، أحضر ما أمكنني جمعه من العلف، بقايا طعام فاسد، خبز متيبس، بعض من خضرة الأرض أجدها في حافات المزارع، لأطعم دجاجاتي الأربع وديكي الأبيض المزين بريشات ذهبية، كان لوالدتي، تركت حول رقبته سير أخضر، لم أتجرأ على إزالته، أراقبهن عن قرب وهن يتناولن علفهن، أتأملهن أن يكثرن ليكثر بيضهن، فبيع عشرون بيضة في اليوم يشعرني بفائدة الدجاج، ثم أضع لهن الماء في إناء لم أرغب بتنظيفه، رائحته كالبول، تتخبط فيه قطع طعام، عفن من الداخل.

وقع أقدام النساء كالحفيف، يهامس أذنيّ، رائحتهن بخور مخمر، يدهن ثيابهن منه، ويتركنه في جيوبهنّ عادة، بجانبه قطعة قماش صغيرة ملفوفة "تعويذة" لطرد الأرواح الشريرة و للتخلص من عيون الحساد، معها يشعرن بالأمان والطمأنينة أكثر، لذلك يعلقنها أيضاً حول رقاب الأطفال منذ أيام الولادة القلقة، يتطاير الغبار خلفهن، يمشين بشارع نحيل على حافتيه تمتد البساتين الواسعة، أراض عشبية، يطغي

على خضرتها لون الخريف الأصفر، يقلل زينتها براز الخيول وقطعان الأغنام التي ترافقها كلاب مهرولة تدور حول القطعان تلعب مع بعضها، تترك صاحبها لتقفز خلف العربات البطيئة التي تلف عجلاتها بعض الحشائش وسط المزارع، الماعز والبط ودجاجات مرحة، أبقار سمان كثيرة تمر متثاقلة، تتربع في الأماكن الرطبة بعد أن تشبع، أطفال يتغوطون بصعوبة، بقايا طعام المزارعين، ثمار فاسدة تنقرها العصافير، دلو صغير ربط به حبل، يرمى في النهر من فوق جسر حديدي صدئ وركيك، يسحب الحبل بعد امتلاء الدلو ثم تنقله الأمهات لبيوتهن، رجال سمر متفاوتون بأعمارهم، تغطي رؤوسهم أشعة الشمس، مقسمون لصفوف واحد خلف الآخر، معاولهم الثقيلة تجر أيديهم لأسفل الأرض ثم يرفعونها للأعلى يحرثون دون توقف، يندي العرق على وجوههم الساذجة، يجففه الهواء حين يهب بينهم ويذيقهم طعم مختبئ من الحياة الجميلة، سرعان ما تمتلئ بشراتهم بالغبار الناعم، مما يغيظهم، لكن ما يقلل عناءهم المتراكم تلك الأغاني الجميلة التي يستمرون بترديدها، كأنها سيمفونية وطنية، تجذبك لمتعة العمل مع الطبيعة، أو مجاورة الأرض الزاهية والأشجار العملاقة كأنها أم تظلل الراقدين تحتها، تتغير ملامح المزارعين عندما تمر النسوة من بينهم، يبدأ بعضهم بالصفير، أو يرفع صوته بالغناء، يبتسمون، ويطلقون كلماتهم

المكبوتة، تعالي يا حلوة، سأعطيك كل أموالي، فقط لساعة واحدة، لا يوجد أحد يراقبنا هنا.. هيا بنا يا جميلات، لنستمتع معاً، بوسعي أن أنسيكِ تعبكِ في ساعة واحدة.. هي يا حلوات، أقصد الشابات فقط، لا أحب رائحة العجائز، لدي شيء سيعجبكن.. ترجع التعاسة لوجوههم بالتدريج، تبهت ابتساماتهم مع ابتعاد خطوات النسوة عنهم دون أدنى كلمة، إلا الابتسامات العفوية، لا يتركن لهم غير زوابع غبار خفيفة.

لقد شعرت بالنعاس الآن، سأكمل لك لاحقاً، كانت العجوز تجلس على كرسي قبالة النافذة التي يغسلها المطر، تنحدر منها بعض القطرات لتبلل غرفتها المهملة، تملؤها رطوبة عفنة، لم يغسلها نور الشمس منذ فترة طويلة، جدرانها تعاني من كثرة الشقوق، تضيئها شمعة كئيبة، تحتضر، تكشف عن بعض لوحات بالية ملصقة على الجدران، السقف كبشرتها المقشرة، والباب ملطخ ببصمات يد الطفل الغبارية، الدولاب بلا أبواب، الثياب مكومة داخله وخارجه، الراديو مهشم فوق منضدة مربعة مجاورة لجدار قبالة الدولاب ترفع مرآة متصدعة، تشوه ما ينعكس عليها، خزانة تضم علب عتيقة، تبدو علب حليب منتهي الصلاحية بجانبه مشط أزرق ملفوف حوله شعر كثيف، كذلك ساعة جدارية كبيرة ساكتة، متوقفة على الواحدة وعشر دقائق وثلاثين ثانية، إناء عريض بجانب الطاولة مليء بالقيء والدم الداكن، نتن جداً، دمية

صغيرة ممزقة معلقة على الحائط، وردة في سندان صغير بجانب الشباك تظهر كالظل، بأوراق ذابلة وساق منحنية، يتساقط عليها الرذاذ من ثقوب دقيقة في الزجاج، كانت العجوز تحدق بلا ذهن في الظلام والمطر الغزير من وراء تلك النافذة، وتروي ذكرياتها لطفلها النائم خلفها فوق الأرض، تنظر للصواعق وهي تشق السماء لتوهج الغرفة بوميضها الخاطف، وتكشف عن أشياء يخفيها نور الشمعة العليل، كملامح اللوحات، ولون الوردة القرمزي، وقرني ثور غليظان معلقان فوق الباب، كذلك تقسيمات وجهها المتيبس، تذكرها الصواعق بدوي الغارات، تشعرها بقليل من الصداع، لكن الجو يجذب إليه عينيها الناعستين، وهما تغرقان ببطء بين جفونها المتورمة، تركت ناظريها، وشغلت ذهنها بكلامها، تروي ذكرياتها لطفلها المختبئ تحت الغطاء حتى رأسه، تثاءبت ثم أدارت رأسها له، لترى نفسها تكلم الظلام والمطر فقط.

2

كانت العودة من الحصاد في سبت النحس الغائم، مع رشقات مطر خفيفة، عودة غير حميدة تركت النسوة مساء ذلك اليوم متجمعات حول مستنقع البؤس المليء بدموع البجعات الحزينات، ذلك المستنقع الواقع تحت ضوء القمر الفضي..

مررن بالقرب من مركز حكومي هجر منذ أن بدأت الحرب، لم ترأف به القنابل، بجانبه توابيت مكومة عليها بقع دم جامد يدور حوله الذباب، متروكة منذ ان صرع الموت جنود هذا المركز.

أخبرت إحدى النسوة صديقاتها بعد أن شاهدنَ الجلبة الصادرة لكثرة الناس المتزاحمين في باب المركز، بأن هناك أشخاص مازالوا أحياء ممن ذهبوا للحرب ولم يعودوا ويبدو أنهم الآن ضائعون في أماكن ما، تأثرت الفتاة بمشاهد الأمهات المثقلات بالهم، الأطفال يجرون أطراف ثيابهن، رجال تلفح مرارة السنين وجوههم، الأعمار كلها حاضرة في ذلك الصخب وتلك الكآبة، يحاولون سماع ما يلقيه رجل حكومي واقف خلف فسحة مربعة صغيرة تقطعها قضبان حديدية، تقع وسط جدار مزين بصور رمزية رمدتها الحرب، الجدار متأثر بقنابل يبدو أنها

سقطت بالقرب منه، وهو يفصل الناس عن صالة كبيرة داخل المركز، يقف فيها الرجل الحكومي حيث يعلن بأسماء رباعية ثم يتبعها بكلمة حي أو كلمة ميت...

فكرت بالذهاب علها تسمع خبر عن الاسم الذي أطلقته على كوكب الزهرة بعد ليالي الحرب الأولى، منعتها إحدى الصديقات موضحة أن الناس هنا منذ فترة ليست قصيرة ولابد أن غالبية الأسماء قد أعلنت، فعليهن الانتظار إلى أن تلصق القوائم على الجدار الخارجي للمركز، سكتت لا تدري ما تقول وعيناها تحدقان بغير انتباه على طفل أفلت يده من يد أمه المشغول فمها بالكلام والصياح وذهب يجري خلف فراشة ملونة حطت على شجيرة مصفرة، ثم طارت من فوق النهر..

أختتم الضابط عمله، بعد أن نفدت أسماء الرجال المنكوبين التي لا تزال معلقة في أذهان أمهاتهم وعشيقاتهم، صرخ رجل عجوز من باطن الازدحام بأنه لم يسمع اسم ابنه منذ بدء الإعلان، فرد عليه الضابط: "عليك أن تراجع طبيب الأذن"، ثم تبين من كثرة الناس الذين صرخوا بعدم سماعهم أسماء أولادهم بعدم احتواء القوائم على كل الأسماء أو ربما حدث فيها خلل ما، فرد عليهم الضابط: "أعتقد أن المركز مليء بالفئران الجائعة"، وهرب من أمام الناس بعد أن أغلق تلك الفسحة بباب زجاجي صغير اتضح أنه بلا زجاج، مما زاد استياء الناس ودفعهم لمحاولة

اقتلاع القضبان الحديدية، مع إدخال أيديهم بين القضبان ممسكة بما تصل إليه، يخرجون الكثير من الأوراق لينشروها في الهواء، اضطر أحد الجنود أن يحضر قضيب حديدي وقام بضربهم على أيديهم حتى هشم عظامهم، أمر الضابط أحد الجنود بإحضار خشبة مربعة لإغلاق النافذة عسى أن ينسحب الناس لبيوتهم.

لا وسيلة أمام العشيقات المُفجَعات والأمهات المنتحبات غير التضرع والدعاء في وقت الغروب وحتى بداية الليل، يضعن شموعهن الشاحبة على الجرف ويتركنها ترحل مترنحة وسط المياه مع رسائل دعاء مختومة بدموع يملأها كحل ليلة زفاف غير موفقة، تختفي تلك الشموع متلألئة بعيونهن الخاوية.

تركت العجوز قبالة كل غرفة مبخرة صدأ تستند على أربع أطراف حديدية تتهالك يوماً بعد يوم، تتصاعد منها خيوط الدخان المعبأة بعطور البخور الهندية، لتنقية المكان من تلك الروائح المقيتة المنبعثة مع أسراب الذباب المدوية من الغرف الموصدة، يبدو أن هذه الغرف الغامضة تخزن بضاعة ما، ذات رائحة نتنة، حتى في غرفتنا أشم نفس الرائحة، حتى في فم السيدة العجوز حين تلقي بذكرياتها، أختبئ تحت الغطاء متظاهر بالنوم، أتمنى لو تنقطع عن الكلام، أبقى منزعجاً حتى ينتهي حديثها لكي أنام.

تراخت القطعة الخشبية المصقولة المعلقة فوق الباب 101، ثم هوت للأرض، اختفت في العتمة قبل أن تصدر صوت اصطدامها بالأرض، السيدة العجوز حينها نزلت من السلم ودخلت غرفتها، بينما عيناي الخائفتان بقيتا تغوصان في الظلام بحذر، كأن وقوع القطعة الخشبية للأرض أيقظ شيء ما، ربما أيقظ الخوف ليطارد طفل تائه، أو ملاك ينقذه من الضياع، في وقتٍ كنت أغرق في الحزن الموحش، شيئاً فشيئاً، ومنجم الأشباح ينجرف نحو العدم بلا توقف، السيدة تركت الدفة ليديرها الهواء، أخشى من الليل، و النوم لأني حتماً سأستيقظ على أصوات أقدام تسمع خلف باب الغرفة، أوقظ العجوز بكلمات خافتة، بدمٍ متجمد، لتبقى تجوب في الغرفة، تنظر من النافذة، تنزل الستائر، لا تتجرأ على فتح الباب، تتقيأ في دلوها العفن، تسحب غطاء آخر لترميه على جسدي، ثم تعود لفراشها مرددة كلماتها المختنقة من تحت الغطاء تطلقها بتواصل وهي تسرح بالنوم، ثم ينقطع صوتها بعد أن تملأ رئتيها أنفاس النعاس الآمنة، أغلق عينيك جيداً، غطي رأسك، لا تحاول أن تخرج شعرة واحدة من تحت الغطاء، كفاك توهماً، عليك أن تنام حتى الصباح، إنها فقط أصوات الأمطار والرياح، أيضاً الكلاب لا تنام في الليل لكنها تصدر أصواتاً فقط، لا تجعلني أربط فمك وأطرافك كالرضيع، لقد مللت ضجر النهار، دعني أنام بسلام، بلا ضجة، فكل لياليّ منتحبة،

كل ليلة في حياتي كالثكلى، ليتني لا أستيقظ ثانية، مللت شكواك المستمرة، وعذاب الحياة الذي لا يهدأ، أعامل وكأني شيطان، ليس وكأني أم، أو أقلها عجوز مسكينة، متعبة، يقرض الهلاك جسمها النحيف وروحها الجافة، حينما أجد ربك سأخبره أني بريئة وعليه أن يغير قدري... يا لتفاهة هذه الحياة، لا تتمكن حتى من النوم المريح فيها..

كنت أبرر لأجل براءة جدتي، أن هذيانها هذا، بسبب البرد والنعاس، لم أعتد على الإنصات لكلامها المستمر أتظاهر بالنوم هرباً من أحاديثها في أغلب الليالي، لا أعتقد أني متأثرٌ أو مستمتعٌ بما أسمع، فقط لا أجد مكاناً آخر غير الجلوس بجوارها بالإضافة فهي لا تسمح لي بالتجول في الفندق، تضربني إذا لم تجدني في المكان الذي تحدده لي.

تعينها عصاها الصلبة على المشي في دهاليز بيتها المتهاوي، جرت يد الطفل المشققة بآثار وجروح الشتاء، جسده يرتجف قليلاً، يجر بيده الأخرى الصحف المغبرة الملصقة على الجدران، عيناه تتوسلان لأجل الرجوع، لأنه يشعر بالبرد ويريد النوم، لم تصغِ له، فأهم الأمور المكلف بالإذعان لها، التبول قبل النوم، أوصلته لدورات المياه، كان يحاول أن يهرب لأن البرد الشديد، أو لأن الأطفال لا يحبون التبول أو التغوط إذا أمروا به، لكن العجوز صارمة، أنزلت بجامته الصوفية الملطخة بكاكاو

تناوله قبل يومين، كشفت عن ساقين أبيضين لم تصلهما جروح البرد بعد، وضعته بقوة في المرحاض ذو الأرضية الخشنة المبللة بقدميه العاريتين، أستسلم بسهولة، اتكأت الجدة على إطار مقلوع بابه، بينما طفلها جالس بالقرب منها مجهد نفسه ليفرغ أمعائه، يشعر بألم قليل أثناء تغوطه، يتذمر محاولاً البكاء بسبب قطرات ماء تنفذ من السقف لتوخزه، احدى يديه تعبث بالصنبور يفتحه ويغلقه، ثم يسحب يده بسرعة مع صرخة صغيرة بعد أن تتلقى ضربة بعصى العجوز، عليك الانتهاء بسرعة، دع اللعب الان.. هيا أسرع، الوقوف يتعبني جداً.. آه تمنيت أن لا أهرم، لا أدري كيف تسير الحياة، كل يوم فيها كأنه سيجارة، يحترق ثم يتبخر، تشعر بآلامه بعد تبخره، ولا تحس بتلك اللذة الدنيئة التي كافأك بها.

كان الطفل يسعل وحول انفه رغوة قليلة يمسحها بطرف ثوبه، اشتد سعاله، مما جعل العجوز تسرع خطاها وهو خلفها يجرجر قدميه، مشبك يده بيدها ويسعل بقوة، وصلا لغرفتهما الساخنة، هيا تعال واجلس قليلاً قرب المدفأة، دعنا نتجاوز أيام العجوز على خير، فالناس يمرضون لأقل الأشياء هذه الأيام.. أحضرت كوباً أبيض منقوش عليه وردة حمراء، أخرجته من الخزانة المعلقة على الجدار مسحت دواخله بثوبها، ملأته من الشراب المتروك فوق سطح المدفأة، يغلي ببطء مع بخار

قليل وروائح الأعشاب الطبية، لفت حوله قطعة قماش صغيرة ووضعته بيده، أشربه وهو ساخن، هكذا أفضل من أن تمرض، أشربه بكامله فمذاقه لا بأس به.. حاول أن ترتشفه قليلاً قليلاً... كما نحن نرتشف العمر المر.. أعتقد أن لدي سترة قديمة سأبحث عنها، فالبرد لا يكاد ينتهي وجلدك مازال طري، الأمراض تخسرك الكثير من الأيام، لكنها تعلمك قيمة أيامك الكثيرة.. استمرت تثرثر بصوتها المتحشرج وهي تدخل رأسها ويديها في الدولاب تفتش عن تلك السترة، ها هي، لكنها بحاجة لبعض الخياطة، أحضرت بكرة الخيوط الزرقاء وإبرة الخياطة من فوق الرف، قربت كرسيها للمدفأة وجلست عليه، حاولت لمرتين أن تدخل رأس الخيط في ثقب الإبرة لكن أناملها المرتجفة لا تساعدها، فطلبت ذلك من الطفل الجالس أسفل الكرسي، كانت يداه ساخنتين فمكنتاه من فعلها..

المساء شجي، يشعرنا بالوحدة وبالحاجة لأشياء لا نعرفها نحمل عنها ذكريات غامضة فقط، الساعة الكبيرة ذات الرقاص الطويل المتدلي، والمنبه ذو الصوت العميق يرن لكل ساعة تمضي، الساعة معلقة على عامود رخامي وسط الحديقة تشير إلى الرابعة والنصف لعصر خفيف الغيوم من كانون الثاني، بالكاد سلمت الساعة من نباتات الأرض المتسلقة الملتفة على العامود، السيدة العجوز تجلس على كرسي خشبي بجانب

شجرة أثل ضخمة، تعلق مذياعها على غصن متدني وصغير، حدقت بالأرجوحة المهملة تحت شجرة السدر، تتحرك بوداعة تأخذ العجوز لما قبل خمسين عاما، حينما كانت النافورة المتوسطة في الحديقة تتقافز فيها خيوط المياه المعطر، في كل صباح تأتي خادمتان بإناءين محملين بعطور الورد الطبيعية لتضيفاهما لماء النافورة بعد أن تفرغا منها إناءين، ثم تقومان بقطف ثلاث سلال من ورد الجوري الأحمر لتضعاه مع الماء، أما المصابيح التي تحملها الأعمدة تضيء من بداية العصر حينما تبدأ السماء تحمر، حتى يختفي ضوئها في اليوم التالي بين أشعة الشمس العسلية، انطفأت المصابيح للأبد، كما باتت النافورة مرحاض للهررة والكلاب... الحديقة مخبأ لذكريات لا تجد الجرأة على الإفصاح عنها لطفلها غير المهتم بحكاياتها.

تضع أمامها على طاولة صغيرة قفص فأرتها، التي تطعمها بفتات خبز، إضافة لكوب أبيض يملؤه شاي ساكن، تركته يبرد ثم أخرجت من جيبها قرص دواء، ألقته في الكوب، حركته مع السكر بملعقة فضية صغيرة، شربت شايها جرعات متباعدة، مدت يدها لتغير إذاعة الراديو القريب منها، تركته على إذاعة، تبث صوت غير واضح، يبدو كلحن ما، تعيقه الوشوشة، سمعت قليلاً ثم أدارت الزر على إذاعة أخبار المساء، في الغالب الأخبار من أكبر أسباب تشاؤم السيدة العجوز، ربما

مازالت تنصت للأخبار الان لنفس السبب الذي جعلها لا تفوت خبراً، عندما لم يعد زوجها، لم تكن تدري أين تبحث عنه، ظنت أنها ستجده في الراديو أو الصحف.. حينما يدخل زبون للفندق وهذا نادراً ما يحصل، تطفئ الراديو بسرعة، الواضح أنها تتحاشى أن يكتشف أحد بأنها لا زالت تفتش بين أخبار السياسة بحثاً عن رجل ميت على كل حال، لم يكن أحد ليكتشف أمرها لكن فقط شعورها بالخجل أو الخوف من نعتها بالمجنونة يدفعها لإطفاء الراديو.

حان موعد أخبار الطقس لكل ساعة، أرادت أن تغير الإذاعة ثم ترددت، الأخبار تنذر بخطر: "رياح شمالية، أمطار غزيرة، تنخفض درجة الحرارة لـ C 7 نرجو الحذر من إعصار يبدأ قبل غروب شمس اليوم بـ تسع دقائق ويستمر لساعة وأربع دقائق، نرجو بقائكم في المنازل، أو أقرب مكان آمن حتى تمر العاصفة على خير.. شكراً لحسن المتا.." غيرت الإذاعة، قائلة: "ما الجديد.. اعتدنا كل شيء"

كانت العجوز واقفة وسط غرفتها تنظر للائحة علاجاتها المعلقة على الجدار عندما سمعت أبواب فندقها بدأت تصطفق بسبب شدة الرياح، أغلقت باب الغرفة ورائها صارخة بابنها أن يختبئ تحت السرير، كان الهواء يدوي في الفناء، تساقطت بعضاً من الثريات إلى الأرض، أصوات أغراض تتدحرج على الأرض، الستائر تتطاير ورذاذ المطر يدخل مع

الريح وكان يدخل معها أيضاً مضلات مكسرة وأكياس سوداء، حفاظات أطفال وأشياء قذرة تأتي من سلال القمامة في الشوارع، أيضاً بعض القطط الهزيلة كانت تتقافز لاجئة للفندق فزعة، مذعورة، الأمر يتحتم إغلاق النوافذ المطلة على الزقاق المهجور والنوافذ المطلة على الحديقة، ما ان اقتربت لسحب باب الشباك الصغير حتى فلتت عصاها من يدها وطارت لأعلى، تشبثت بالمقبض، رافعة إحدى يديها التي بدت ركيكة في مجابهة الهواء، عصفت الريح بقوة كادت أن تحمل العجوز معها لولا أن أنزلت يدها الخائبة للتشبث بكلتا يديها، صارخة: " أنقذني يا إلهي" كان الذهول واضحاً عليها وهي مرفوعة عن الأرض، كخرقة قماش وسط العاصفة، إنها تطير لكن ليس بإرادتها، لا يمكنها فتح فمها بسهولة، وحين تصرخ فصوتها غير مفهوم وغير مسموع، التصقت بوجهها حفاظة طفل أثناء بقائها في منتصف الرياح متعلقة بالمقبض على حافة النافذة بيديها المتراخيتين المهددتين بالإفلات، كان من الممكن أن تستلم بيأس، لأنها بدت ضعيفة جداً أمام مخاوفها، لم يكن عصف الهواء يسمح لها بمراجعة سجل ذكرياتها بعد أن رأت أن عليها أن تستسلم للموت أو أنها في حالة موت بطيء، إنه مجرد خطأ بسيط وفي لحظة واحدة تكون لا شيء.. في خضم نزاعها الذي حسبته الأخير كان مقرراً أن تعيش أكثر، ارتطمت إحدى القطط الهزيلة أثناء قفزها من النافذة بوجه

العجوز ليكتمل ذهولها، كادت القطة المتوحشة أن تلصق مخالبها بوجه السيدة المرتعب، لكن الهواء جرها بقوة ليرميها، عندما أحست السيدة العجوز بأن قطة على وجهها كانت يداها قد فلتتا على الفور وأطلقت صرخة تعبر عن قمة رهبتها، لكن شيء مما تصورته لم يحدث، ليس كل مخيف يعني الموت، كل ما حدث أنها سقطت بعيداً عن النافذة..

أمسكت رأسها وفتحت عينيها ببطء، كانت العاصفة قد انتهت، لكن الأمطار ازدادت غزارة، شعرت بدوار ثقيل مع الآم في وركيها، الإضاءة تكاد تنعدم، ترى الأشياء بإنارة خافتة تارة، ولا ترى شيء تارة أخرى وكل ما تراه يبدو متمايلاً أمام ناظريها الغائرين، أحست أنها لم تمت بعد، مازال بوسعها الشعور بآلامها، شيء ما يغطي قدميها الممددتين على الأرض، مدت يدها لتلمس الأرض فوجدت أنها في مستنقع، الماء الموحل يغطي الأرض على ارتفاع ربع متر ولايزال يرتفع، قطط تستغيث وأخرى تتراكض لا تدري أين تلجأ، الكثير من أغراض الفندق سقطت في المياه التي تدور في الفناء، كالكتب المنسية على الرفوف وبعض الثريات المعلقة التي تساقطت أثناء العاصفة، قطعة من زجاجها جرحت معصم العجوز حين لمست الماء بيدها الخائفة.

استمر المطر والرعد حتى منتصف الليل ثم بدأ يخف، لم يكن بمقدور أصحاب البيوت المتداعية أن ينتظروا حتى الصباح ليفرغوا مياه

الأمطار، عملوا بإرهاق ودون جدوى لإخراج الماء إلى الشوارع المليئة بالماء أيضاً، فقد أطفال كثر أثناء الفيضان، ولا يدري أحد أين يبحث عن طفله، ما أن أتى الصباح وبدأت سيارات الدفاع المدني المتأخرة بسحب المياه حتى عثر على أغلب الأطفال المفقودين، كانوا ينجرفون مع أمواج المياه التي تخرج من البيوت..

في اللحظات الأولى للعاصفة، عندما كانت العجوز تنظر للائحة علاجها متجاهلة ما يحدث في الخارج ظناً بأنها مجرد عاصفة مارة، ثم أجبرتها الأصوات الغريبة في الفندق على الخروج لإغلاق النوافذ، قبل أن تخرج تأكدت ان نافذة الغرفة مغلقة بإحكام، لأن تلك اللائحة قريبة من النافذة، ففقدانها صعب جداً باعتبارها أصبحت جزء من حياتها، لاحتوائها على المواعيد المنظمة لعلاجاتها الكثيرة بسبب أمراضها القديمة المزمنة وأمراضها الجديدة التي حتمت عليها تناول دوائها على مدار اليوم كله، بين كل ساعة وأخرى، لذلك تستخدم ساعة المنبه الزرقاء القريبة من وسادتها لتوقظها، هذا إن لم تكن مستيقظة قبل الموعد لأجل التقيؤ، فتسمع رنين المنبه وهي لم تكمل قيأها بعد، تمد يدها الركيكة لإغلاقه بسرعة حذر أن يستيقظ الطفل ويبقى يئن مدعياً بأنه يسمع أصوات أناس في الفندق.

تعتمد على اللائحة باعتبارها الطريقة الأفضل لتعاملها مع حالة

النسيان الكئيبة والمقلقة في الوقت نفسه، كان يبدو عليها واضحاً حين تتوقف بصورة مفاجئة أثناء سرد حكاياتها، ناسية سلسلة ذكرياتها، فتقول سأكمل في وقت آخر، لكنها لا تكمل..

أيضاً جعلها النسيان تتناول كميات كبيرة من دوائها بدون إدراك، قد تتناول نفس الدواء بعد دقائق من تناوله خوفاً بانها لم تأخذه بعد، ظهرت لها أمراض أخرى بسبب هذه الحالة مما اضطر الطبيب ان يصنع لها تقويم عام كامل لعلاجاتها وبالساعات المحددة حيث ستضع علامة على الوقت الذي تتناول به الدواء، سيكون في كل عام تقويم آخر إن كانت هناك أعوام أخرى.

فقدانها للائحتها قد يصيبها بحالة جنون وكان واضحاً عليها حين عادت للغرفة، رغم صعوبة وصولها، تتكئ على الجدران أو تتعب فتمشي على أطرافها الأربع وسط البركة التي كونتها الأمطار، دخلت غرفتها مرتبكة، طفلها لا يزال مختبئ تحت السرير الحديدي المرتفع، لا يظهر غير رأسه من الماء: "يا لك من أحمق، أصعد فوق السرير قبل أن تغرق"، سرت ضخة دم دافئة ومطمئنة في عروقها حين رأت النافذة لا تزال مغلقة، لكن سرعان ما أصابها الاضطراب، اللائحة غير موجودة على الجدار، منظرها يدعو للشفقة وهي تفتش بيديها الداميتين وسط بحيرة أغراضها، يطفو بها دلو قيئها، وعلب دواء، أوراق، سندان

وردتها القرمزية.. الطابق الأسفل من فندقها أصبح كله بمستوى واحد من مياه الأمطار، نظرت لطفلها كادت أن تصرخ به ليبحث معها، لكنها صاحت به : "أخرج وانتظرني في الطابق الثاني، قبل أن تقتلك المياه، سآتي بعد أن أجد تلك اللائحة.. كيف سأعيش بدونها..؟ يا إلهي ساعدني" كان طفلها بطيء، فأسرعت خطواته بصرخة أخرى: " أسرع، ألا ترى المياه ترتفع؟".

كانت تلك الجملة آخر ما سمعته منها، لم أفكر وقتها أنها ستموت بهذه السهولة، إذ عثر عليها في صباح ليلة العاصفة جثة مشبعة بالمياه مع أكوام جثث الأطفال وجثث الكلاب والهررة التي قذفتها المياه في أماكن مختلفة، حتى وسط الأزقة وأمام أبواب البيوت.

بعد ما يقارب عشرة أعوام على موتها كنت أبحث في سجلات لموتى مفقودين، وجدت أسمها دون قصد، دفنوها في مقبرة متطرفة من المدينة التي عشت بها، اعتاد الناس أن يدفنوا فيها الأطفال أو الأجانب.

زرتها في يوم غائم، كان قبرها مغطى بأحراش الأرض، وبنيانه مهترئ، وجدت عليه الكثير من براز القطط، حاولت إزالته، أيضاً مسحت الغبار من على اسمها، ربما عرفها الناس حين وجدوها، ولم يتركوا قبرها بدون تفاصيل.

أتذكر آخر أسبوع لها، لم توحي لي تغيراتها المفاجأة بشيء، كنت

أظنها إحدى نوباتها المختلفة، عندما منحتها ذاكرتها فرصة أخيرة لتذكر طفولتها، قالت:

فقط طفولتي كانت الورقة الخضراء بين كل أوراق حياتي المصفرة، أعتقد أن المرء حينما يشيخ عليه أن ينسى طفولته، فلسنا بحاجة لأوجاع جديدة، أعرف أنك لا تحب طفولتك الان، حتى أنا لم أكن أحب أيامي حينها، لا تحب الشيء إلا حينما تغادره.. أوه، لا أحب طفولتي ليس الان وليس في الماضي..

بكيت، ثم التفتت لقطرات المطر المنزلقة على زجاج النافذة، أحسست بدفء يعتمرها، وأظن أنها شعرت براحة في معدتها في تلك اللحظة، لأنها منذ ذلك الوقت ولمدة أسبوع لم تقيء كما اعتادت في الليل رغم أنها أبقت على دلوها داخل الغرفة خوفاً من بطنها، قضت أسبوعها الأخير تتنفس بهدوء، وتعاملني بلطف أكثر من السابق، حتى شعرت بسخونة يديها حينما احتضنتني للمرة الأولى على ما أتذكر لكن يوم العاصفة كان عودة على ما قبل هذا الأسبوع.. كانت الشيء الوحيد الذي عرفت بعض أسراره في ذلك البيت المليء بأشياء مجهولة.

3

يجد المرء نفسه حينما يتألم، وحينما يحزن، قبل سنوات كثيرة لا أتذكر عددها بالتحديد، كنت وحيداً أو معتزلاً، أعيش في مكان أشبه ما يكون بمحجر صحي، كالكثيرين غيري، نشترك معاً برائحة البول التي تعج بها الصالات المشبكة بالحديد في أغلب صباحات الشتاء وتعجز رشات الديتول عن إخمادها، أما في مواسم الحر الخانق فإن رائحة العرق البارد تخيم طوال اليوم، المراوح بطيئة جداً، تمر ريشها الصامتة قاطعة خيوط الشمس المسائية النافذة من فسحة مربعة صغيرة في أعلى الجدار الأبيض العريض، توجد نافذة أخرى في الجدار الجانبي تنسدل عليها ستارة مخملية حمراء، لا يسمح لنا بفتحها مطلقاً، دون معرفتنا بما يوجد خلفها، تراقبنا المرضات بأطراف أعينهن طوال النهار أثناء جلوسهن حول طاولات بيضاء وراء الأبواب الحديدية، يقززهن لعبنا مع الصراصير المتسكعة وقت تشاء، حينما تخرج من الثقوب الصغيرة في الزوايا، اعتادت أن تكون بأمان معنا، لا أدري ربما كنت صرصرة بنظر الآخرين، ضحك بهدوء واستياء تام، كان جالساً أمام طاولة طويلة عليها جريدة يظهر عليها عنوان يقول" عمليات مكافحة الإرهاب تلقي القبض

على أصحاب الجرائم المسائية"، فوق الجريدة كوب شاي فارغ منسكب بعضه على المقالات المحتشدة الكلمات، يجلس على كرسي خشبي مصقول مسند لجدار، في غرفة واسعة تضيئها قناديل معلقة بالسقف، بضوء ناعس. داخل عينيه الغاربتين كثيرٌ من السنين، وجهه مليء بقطع لاصقة تغطي الجروح الخفيفة، يده اليسرى ملفوفة بجبيرة جبس طبي أبيض ومعلقة لعنقه، رفع يده اليمنى لشعره الأبيض المجعد، ثم وضعها على الطاولة، عليها آثار حروق قديمة، أظافره كأنه لم يقصرها منذ ولادته، يرتدي بنطلون أزرق عريض بحمالته الزرقاء أيضاً فوق قميص أبيض مخطط بلون رمادي، على كتفه الأيمن بقعة دم تبدو قديمة جداً.

في نهاية الغرفة قبالة الشباك الكبير المطل على نهر ساكن ومسور بمصابيح كبيرة نورها أحمر باهت، ومصابيح أخرى بعيدة كأنها تثقوب في عتمة ليلة متنهدة ذات مناخ معتدل، يقف شاب طويل، يرمق الكون من خلال ذلك الشباك، قال: "كنت أظنها تثرثر فقط، لكني الآن أفهمك"، كان يكلم الرجل المتعب الذي رد عليه، أثناء ما نهض من مقعده ليأخذ علبة سجائر من خزنة في الجدار: "لم تكن حزيناً بما يكفي كي تصغي لكلام عجوز"

أخذ سيجارة وعاد لمقعده، ظله المنهك مسترخٍ على الجدار، تنفس

بعمق، مخفياً رغبة كبيرة في النوم، سعل بقوة تاركاً السيجارة معلقة بين شفتيه، وأخذ يضرب بيده على صدره المتماسك، طارت السيجارة من فمه، سقطت على فخذه لتحدث ثقباً في البنطلون، شتم نفسه ثم أعادها لفمه، أذناه طويلتان عليهما شعر خفيف، إحداهما لا تعمل لذلك يفقد توازنه، كما ان الأخرى ضعيفة السمع لكنها تكفي لأن يفهم على بعد بضعة أمتار بصوت طبيعي، يملك عوضاً عن ذلك حاسة شم قوية بأنف طويل ينبت عليه الشعر، ذقنه غير حليق، حاجباه متصلان و لديه رموش ذابلة، إحدى عينيه تغطيها قطعة سوداء مدورة صغيرة، كتلك التي يضعها القرصان، والأخرى كبيرة بقزحية رمادية محاطة بحمرة تتخللها خيوط بيضاء، بشرته زيتية مائلة للسمرة، شاحبة من الأرق الدائم، فتح شفتيه الزرقاوين مخاطباً صديقه:

" أظن أنه حان دورك لتخبرني ما حل بك، بعد موت جدتك"

رد الآخر ولا يزال بنفس وقفته: " هناك الكثير في داخلك، تعرف أني مصغٍ إليك ".

أنزل سيجارته من فمه، فركها بجبيرة يده لتنطفئ ثم رماها على الأرض، ثم أخرج مسدسه الذي يحتفظ به في بنطلونه أعده ووضعه على الطاولة، تنهد: من أتعس الخدع في الحياة، ان ترغم على فعل أشياء، كنت تراها دنيئة، وانك كرهت كل من فعلها، دون أن تدري ان دورك

سيحين في يوم ما لفعلها.. في إحدى الليالي أرادت النسوة اللائي يديرن المحجر تطبيق منهاج جديد، يتضمن إطفاء الضوء في الليل، من الساعة العاشرة مساءاً وحتى السادسة صباحاً، أخبرننا بالتعليمات عندما كنا نتناول الشوربة في العصر، داخل صالات الطعام المفعمة بأمواج ضوء الشمس البرونزية، تفاجأنا بخوف، وكل منا يردد برعب: "سننام في الظلام"، شعرت بآلام في معدتي، بعد خبر الشؤم هذا، ورأيت الرفاق ملتفين معاً يخططون لأمر ما.

دخلت امرأة كبيرة في السن، ترتدي الزي الأبيض، أراها بعد كل وجبة طعام تمسك جرس ذهبي صغير، تحركه ليرن كي ينبهنا بحضورها، تصيح بنا أن نترك موائد الطعام.

أكثر من يدير منتجع آلامنا ذلك، النسوة، رغم تواجد قلة من الرجال أراهم نادراً، لذلك كنا مقيدي الأيدي والأرجل بأغلال حديدية أغلب الأوقات، وهذا يسبب لنا مشاكل عند ذهابنا للمرحاض، اعتدنا عليها بصعوبة، أيضاً في يوم الفحص، رغم أنهم يجردوننا ملابسنا لكن يبقون على قيودنا، يقودنا شابان يرتديان بدلات زرقاء وكمامات، مغطين رؤوسهم، يأخذوننا واحد تلو الآخر، عبر ممر رطب معلقاً بوسطه مصباح واحد يتدلى بواسطة سلك طويل ممتد من السقف المرتفع، يوصلوننا لغرفة بها طبيبة وممرضتان وكلهم يغطون وجوههم وأجسامهم

بالملابس الزرقاء إذ لا تظهر إلا أعينهم، ويلبسون قفازات طبية، لكني عرفت النسوة من شعرهن الأشقر الطويل وكلامهم الناعم الحاد، بعد أن يدخل أحدنا الغرفة، يقوم الرجلان بإنزال بجامته المخططة بخطوط حمراء وتركها معلقة بنهاية قدميه، بعد ذلك يفتحون أزرار قميصه الملون بلون المنامة الزرقاء، إذ لا نرتدي تحتهما شيء رغم قساوة موجات البرد المتتالية، يقف على قطعة مربعة لقياس وزنه، ثم يجلسونه على كرسي وتقوم الطبيبة بفحص العينين والفم والأنف، تضع مادة على اللسان، بعدها يتركوك تستلقي على ظهرك ربع ساعة وعلى بطنك ربع ساعة أخرى، تقوم الطبيبة بإجراء فحوصات، أو تحقننا بمناطق مختلفة مخاطبة المرضتان بين لحظة وأخرى ليحضرن لها ما تطلبه، أما الرجلان فيقفان بالباب ينظران فقط، آخر مراحل عملية الفحص الأسبوعية، تحضر المرضتان مرهم لا أعرف فائدته ويدهنا الجسم من الجبين إلى أخمصي القدمين، بعدها ترتدي ثيابك لتلتصق على جلدك بسبب المرهم الذي يبقى ليوم دون أن يجف.

لا أتذكر أول يوم لي بالفحص جيداً، ذاكرتي مشوشة الآن، لكن أتذكر أن جسدي ارتعش حين خلعوا لي ثيابي وضربت أحد الرجال بعنقه، كادا أن يضرباني لكن الطبيبة أوقفتهما قائلة: "إنه جديد، خذاه لغرفة التعليمات البدائية ثم أعيداه" أخذني الشابان لغرفة تبعد عن تلك

الغرفة بسبعة أبواب مغلقة، بقيت أسير ومنامتي لا تزال معلقة في قدمي، فتح أحدهما بابها الحديدي، كانت إنارتها سيئة وأغراضها شبه مبعثرة، غطيا رأسي بكيس أسود، رفعا يدي من قيدهما وعلقاه بوصلة على الجدار، أحسست ببرودة سيئة في ظهري، ربما سخونة مسرفة، كانا يضربان بقضيب جلدي نحيف، بلا توقف، صرخت صرخة واحدة بأقصى ما أملك من صوت وأفضل من أي طفل جبان، لكني لم أصرخ صرخة ثانية، فقدت الوعي مباشرة، لم أتمنى أن أموت وقتها بل خفت أن يحصل ذلك، ما تمنيته فقط أن ينتهيا من ضربي بسرعة متأملاً بكل ضربة أنها الأخيرة، ولا أظن أني شهدت الضربة الأخيرة، إذ لم أصحُ إلا بعد يوم، وجدت جسدي دبق ومغطى بقطع دم ملتصقة بثيابي، شعرت بحرارة بالغة، وعانيت دون أن اصرخ، فلا زلت خائفاً.

كنت أتفه شخص على قيد الحياة، فقط أمضي وأحاول أن أنسى، غضبي يتحول لحزن وخيبة، رنات الصداع تعكر يومي كله، أقضي وقتي معتزلاً عن بقية رفاقي، متكئ على أحد الجدران وأرسم أو أكتب عليه بأظافر يدي، أحياناً لا أكتب أبعثر فقط، أكتب سؤالي البريء، لم نحن هنا؟ أحد المائة شخص الموجودين في الصالات يقول: لا أتذكر كيف أتيت، لكني كنت أغتصب باحتراف كل من يعجبني قبل أن يحضروني هنا، آخر يقول: أيضاً لا أتذكر كيف دخلت هذا المكان، ولكني سمعت

أمي تقول في آخر ليلة لي معها بأن الحكومة أنشأت محجر متطرف بعيد عن المناطق السكنية، بتعاون مع وزارة الصحة بعد إعلانهم بتفشي مرض نسيت اسمه الان، وسيجمعون المصابين فيه. رجل يقول: لم أكن مريضاً لكني كنت أخطف الأطفال وأقايض أهلهم بمبالغ مالية.

بقيت أستمع دون العثور على جواب، أحدهم كل ساعة يقول شيء، أول الأمر أعترف بأنه قبل أن يأتي سرق بيت وأمسكوه، ثم قال بأنه وجد زوجته تعاشر رجل فقتلهما معاً، وفي النهاية قال أنها لم تكن زوجته بل أخته.. ثم أكمل كلامه بحيرة: ولكن أمي تقول إنك بلا أخوات!

هل أنا مجنون.. أو مصاب بمرض ما.. أو شاذ؟ في حالتي هذه لا أعرف نفسي جيداً بل لا أعرف نفسي مطلقاً، أنا لست أي شيء ولا أدري إن كنت شيء ما في حياتي السابقة..

رفع الرجل العجوز عينيه بعد أن فرغ من سرد جزء بسيط لقصته، وأحنى الشاب النحيف يديه على قاعدة الشباك مقوساً جسمه قليلاً، ثم ألتفت وتقدم نحو صديقه، جلس على أحد الكراسي الملتفة حول الطاولة، قال: "أكان بمقدورك أن تعتاد عليه"

– لا أدري، أحياناً لا أنام مطلقاً، وأحياناً أنام لأسبوع كامل أو أسبوعين، لكن النوم لا ينجيني من يوم الفحص، يجروني من يدي،

ليس بوسعي فتح عيني المغشوشتين، أشخر وأسير، يلقوني في الصالة العطنة بعد انتهاء الفحص، لأبقى نائماً على الأرض الباردة، في كل صباح أقضيه نائم أيضاً يجروني من يدي، يؤمر الجميع بالخروج لقاعة في الحديقة بجانب الطابق الأسفل، نصطف جميعنا عراة، تحت سقف يرش علينا الماء المثلج في بعض الصباحات النحسات، يخبروني في ما بعد أني كنت ممداً على الأرض رغم كثافة المياه، أثناء الاستحمام يجب على كل شخص أن يفرك جسد الآخر بصابونة ذات رائحة قاتمة، بعض الأيام يتركوني ملصقاً على الأرض القذرة لأنهم يقولون إن جثتي ثقيلة، ومرة وجدوني قد تغوطت أثناء نومي، أو نائماً فوق دائرة بول كبيرة، يلقوا علي دلو ماء ويتركوني نائماً مع قذارتي، ثم أعاقب من قبل العاهرات اللاتي يرمقننا طوال النهار بعدم حصولي على وجبات يوم كامل – إن صحوت من النوم – لأني لم أستحم، ولم أستيقظ في السادسة صباحاً، ولم أفرك جسد أحدهم بالصابون، وأيضاً تغوطت في نومي..

رفع عينيه لتلتقيا بعيني الشاب الوسيم وقال: "غالباً ما كنت أفتقد لشيء يجعلني أتألم"

رد عليه الشاب: "الآلام جميلة جداً –ركز بعينيه وأكمل عبارته – عندما تتذكرها"

4

أقضي وقتي المتحجر متكئاً على الجدار، لا أتركه حتى أشعر بامتلاء جسدي من الحشرات المتسربة عن ثقوب الأرض، أفكر بما تخفيه تلك الستارة المخملية الحمراء المنسدلة على شباك في جدار جانبي متقشر، لا أملك الشجاعة على رفعها، أظن أني سمعت بالتعليمات أنه لا يجوز فتح النوافذ المغلقة ويمنع تحريك شيء من مكانه، مجرد الظن يجعلني امتنع رغم فضولي الجامح، اعترف بأني أخاف حتى من تلك النظرة الخاطفة التي ترمقنا بها الطاهية البدينة من خلف نظارتها السميكة ونحن نتناول الحساء الساخن ونتصبب عرقاً في العصر الحار أيام الصيف اللاهبة، التي أتمنى أن لا تعود، بعد الانتهاء من الحساء على كل منا أن يتجرع ملعقتي شراب ذو مرارة حادة تعبق في الفم طوال المساء، أتقيأ بعض المرات بسبب ذلك الدواء عديم النفع، تقف إحداهن بجانب الطاولة المليئة بالأدوية، بهذه الطريقة لا يمكن لأحدنا ان يهرب من علاجه المحتوم.

الصالة باهتة، تائهة في مساء يعج برائحة زهور تفاح الجن المتفتحة، ذات الأغصان الرفيعة المورقة، أطرافها ملونة ببقايا شمس

مودعة تمتد من خلال النافذة المفتوحة المطلة على الحديقة، كنت جالساً لوحدي كالعادة، وجهي مكفهر وعيناي غاضبتان بتشاؤم، أحدق في الوعاء المدور المليء بالحساء، على الطاولة أمامي، أنتشل القليل بملعقتي معبراً عن عدم شهيتي، ليس لأنال اهتمام أحدهم، فهذا ليس مكان اهتمامات، بل انه صنع لكل منا قناع استياء يصعب انتزاعه، في ذلك المكان تكون أعماقك مرسومة على وجهك، منتظراً دورك في طابور الموت الذي يؤخرك يوماً بعد يوم، ينظر أليك ضاحكاً من بعيد وهو يوقع أوراق العابرين، وأنت واقف كغيرك بلا أدنى قسمات...

صوت كرسي يدفع على الأرض، ركله أحدهم ليستقر قبالة طاولتي، أبقيت ناظري للأسفل محدقاً فيما وراء الشوربة، للحظة بدت لي نفسي الضائعة داخل هذه الجثة المنكوبة، بدت بأسوأ مما أكاد أفهم، كقبرة يتيمة، خائفة.. تكلم الصديق المجهول بعد ان استقر على الكرسي: " مرحبا " ، تركته بلا رد ودون أدنى اهتمام، أتناول حسائي ببطء وامتعاض، أضاف: "اسمع سأخبرك شيء – أدار رأسه ثم أعاده بسرعة – أترى تلك الرشيقة الشقراء الواقفة في الباب" رفعت عيني لأرى من يكلمني ثم أنزلتهما وأخبرته على الفور دون أن ألتفت للشقراء: "نعم، أراها" كنت أتكلم بغير اهتمام، أما هو فيتكلم بصوت حذر وخافت بعض الشيء كما تبدو على حركاته العجلة، قال: "لكنك لم ترها"

– رأيتها عند دخولنا.. أعتقد أنها جميلة.

– انظر لما سأفعله معها.. سأكون بطلكم، لأفعل ما تحلمون به كل ليلة.

قلت بسخرية واستعطاف: " هل أكملت حساءك؟"

– فليذهب للجحيم.

– إذن ستذهب وراءه.

– أتراهن، بعلبة سجائر؟

– لا فأنا أدخن بقايا السجائر.. ولكني سأعدك بشيء.. لو حقاً فعلتها؟

– بماذا..؟

– سأروي قصتك للآخرين، إن تذكرتها.

– حسناً، فكرة جيدة، رغم أني لا أدري عن أي آخرين تتكلم، والآن سأذهب لأراهن أحد غيرك.

– انتبهت وقلت في نفسي: "حقاً، عن أي آخرين أتكلم"

كان يجلس مع كل السذج والنكرات المنسيين في هذه المقبرة ليخبرهم بما سيفعل وعليهم أن يراهنوه مقابل فعلته الجريئة.

في زاوية من صالة الطعام المحمضة، وعلى ارتفاع ما يقارب المترين

عن الأرض، تقطن سلة مغبرة على رف صغير تحمل وردات منفردات، يتدلى منها ورد دامي اصطناعي بأفنانه الطرية ليمس الأرض، تهجرها الأنظار خاصة بعد أن استغلتها العناكب للاستيطان، مزهرية حزينة، مركونة بحيث لا تثير مشاعر أحد منا، كنت أنظر إليها من خلف حجاب خفيف تصنعه آخر إشعاعات الشمس، بينما امرأة بدينة تمسك ورقة كبيرة وتثرثر بكلمات تختفي بين حوارات الرفاق، رفعت عينيها الشزرتين ثم صرخت: " أصغوا.. أضفنا تعليمات جديدة" ألتفتت الغالبية لسماع الشيء الجديد الذي يستحق الإصغاء، كانت تقف وراء ظهري على بعد طاولتين وباب ذي قواطع حديدية متباعدة، لذا فقد هيأت لي جلستي المعاكسة عدم التكلف بالالتفات.

الأمر بدا مثل صدمة، أحسست بيدي شلت، بقيت الملعقة قريبة من فمي المفتوح لخمس دقائق صمت يشوبه غليان قدر حساء على الطباخ، نظرات غريبة متبادلة، أما عيناي فحافظتا على رزانتهما محدقتان بالوعاء، كانت تلك حالتنا عندما كررت المرأة عبارتها لمرتين: "اعتباراً من الليلة ستطفئ الأضواء في الليل، وعليكم الاعتياد على النوم في الظلام".

أعترض شخص واحد بصوته الأجش المرتفع متأملاً أن نقف معه لنرفض القرار، بينما نحن خائفون، الخوف أحد الدروس التي تعلمناها في أوقات التغوط الإجباري، إنهم مستعدون لتعليقك بالمروحة يوم كامل

لو قلت لهم: "لا أرغب بالتغوط الآن، أشعر بأن بطني فارغة" أو يقتلعون لك أظافرك أو أسنانك، إنهم لا يشعرون بشيء مقابل معاناتنا. ردد رفيقنا المعترض ثلاث جمل غاضبة بعدها جره أحد الحراس من شعره ووضع رأسه في القدر الذي يغلي على الطباخ، أعتقد أني رأيته يعاني من جروحه لمدة يومين وصباح يوم ثالث، أفتقده بعضنا في الظهيرة وألح أحدهم على ممرضة لتخبره ما حل بصديقه، ردت عليه: "إن لم يكن ميت فسيكون معكم".

مساء مشئوم بالنسبة لرفيقنا الحالم، لأن الحارس الذي عاقب الرجل المعترض سينوب اليوم عن المرأة الشقراء، لأنه استاء وقال لها: "دعي الحمقى لي اليوم، يبدو انهم لم ينضبطوا بعد".

نظرت لصديقي المجهول من خلف كتفي لأرى كيف تغيرت ملامحه، عيناه توحيان بالصدمة والهزيمة، خيبة عارمة قضت على جنونه وتهوره قبل الأوان، تبسمت بسخرية، ثم تاه عن ناظري بعد أن حان انتهاء وقت تناول الطعام.

اصطففنا بشكل غير منتظم، بخط ملتف داخل الصالة، كنت أرى الحارس يأمرهم أن يتناولوا ثلاث ملاعق من ذلك الدواء المر، شعرت بأصابع تجرني من يدي، التفت لأرى صديقي المجهول يقول لي: "اسمع هناك فرصة أمامي" كان يتكلم بهدوء وقلق.

– عن أي فرصة تتكلم؟

– الفتاة الآن في المطبخ، من المؤكد أنها ستعود لعملها لو رحل هذا الكلب.

– يا لك من وغد، وكيف سيرحل.

– كل ما عليك فعله هو أن تتقياً عليه..

– هههههه وهل أنا أحمق لأشترك معك.

– لن يحصل لك شيء.

– لن أفعل.

– راهنت الجميع، بأني سأفعلها.

– ابتعد عني.

حدق بعيني بغضب، ثم ذهب ليقف خلفي ببضعة أشخاص، بقيت أنتظر دوري بعد خمسة رجال تقريباً، أفكر فقط بهذا المجنون وفعلته التي ستؤدي بحياته، لا أكاد أصدق كيف لرجل منا أن يفكر بفكرة كهذه، أخيراً انقطعت عن التفكير بعد أن حان دوري، كان الحارس منتصباً قرب طاولة الأدوية، أمسكت الملعقة المغطاة بلعاب الآخرين ملأتها بالسائل الثخين الأصفر من علبة زجاجية، ابتلعتها دفعة واحدة، قال الحارس: "واحدة أخرى" شربت الثانية وأحسست ببطني تتقلص، قال: "واحدة أخرى أيضاً" ما إن وضعت الثالثة في فمي حتى

تقيأت كل الحساء على صدر الحارس، تلقيت ضربة من يده الغليظة، لأصطدم بإحدى الطاولات، أكملت قيئي وأنا مرمي على الأرض، ظل الحارس واقفاً والرفاق يمرون من أمامه، لكن يبدو أنه انزعج من رائحة القيء على صدره، لذلك غادر لتحل الشقراء مكانه.

حدقت بها، حقاً إنها جميلة، أخذت عيناي تبحثان عن صديقي المجنون فرأيت بينه وبين الفتاة رجلين، عادت ملامح الفرحة الغريبة لوجهه، ما إن حان دوره حتى وضع يديه المقيدتين حول رأس الشقراء وأخذ يلعق وجهها وشفتيها بشهوة عارمة، تجمد الجميع من الدهشة، صرخت الفتاة وحاولت ان تفلت من وحشيته وملذته ذات العاقبة المحتومة، وضع يديه على صدرها، ماسكاً نهديها الصغيرين بعنف، هم بتمزيق ثيابها، لكن ضربة قاسية على مؤخرة رأسه أصابته بالدوار وعدم الحفاظ على ثباته، كانت الطاهية قد ضربته بمقلاة لا تزال ساخنة، حضر حارس بدين على أثر صرخات الفتاة المفجوعة ذات الصوت الحاد.

في الحقيقة كدت أن أحسده على تلك البهجة المرسومة على وجهه رغم سوء حالته وهو يجر على الأرض من فروة رأسه بيد تسوقه لنهاية عزاءه، نظر لي لاهثاً وفرحاً، أشار بيده نحوي وقرأت على شفتيه المتحركتين بصوت غير مسموع، كلمة: "شكراً" ارتعبت، خوفًا أن

يسحبني خلفه.

ذهبنا لحظائرنا الباردة في وقت غروب آخر شمس لشهر كانون الأول، علينا استقبال ليلة مختلفة والتأقلم معها، فهو حتماً أفضل من التأقلم مع المعاناة. منذ ان فتحت عيني في هذا المكان لأجد نفسي بلا ذاكرة، وسط مكان بلا أصوات، هادئ كالسماء، جسدي خدر وقتها و تتدفق منه دماء ساخنة، وجهي، قدمي، بطني الفارغة، كلها تنزف، بقيت لفترة لا أعرف مقدارها، مستلقٍ على دمي وبولي فوق أرض عارية، أتأوه بسبب الكوابيس الناتجة عن حرارة جسدي، أقسى معاناة مررت بها وسط حلقات الضوء المتراكمة في عيني، منذ أن وجدت نفسي في تلك الحالة الكئيبة، وفي كل لحظة لا يُطفأ الضوء، حقاً إنه رديء، يضعف ويقوى في كل ثانية.. أعتدنا ان تكون كل اوقاتنا مضاءة، عندما قالت ستنامون في الظلام، لم نعرف ما هو الظلام، نخاف من أي اسم غامض.

نهض من كرسيه، تمشى ليقف بجوار الشاب الوسيم، حدق برهة للظلمة المرقعة بالمصابيح، قال: "العتمة تخبئ كل أسرارنا المتشائمة وذكرياتنا الحزينة، عندما تكون في الظلام، تفقد جسدك، تشعر بوجود نفسك فقط".

في الليلة الأولى قبل العاشرة بخمس دقائق، صاحت إحدى

الممرضات: "سأطفئ الضوء، عليكم ان تناموا الان" صرخ أحدنا بصوت مخنوق: "انتظر.. ثم توسل باكياً، واستطرد: أرجوك، أبقي الضوء، لا أعرف كيف يمكن لعيني أن تغمضا في الظلام" ردت عليه مهددة: "اخرس" صاح عليه رجل من بين رفاقي الغرباء: "تباً لك، أتحسب نفسك رجل". أطفأ الضوء مباشرة، صرخ الرجل الأخير: "هاااااااا ووووووو" صوته يدل على المرح، ضحك بأعلى صوته، صارخاً بين قهقهة وأخرى.

مر ما يقارب نصف ساعة، ورجلنا الشجاع لا يزال يصرخ ويضحك ويزيد خوف اصدقاءه، الأنفاس الخائفة واصوات الرهبة المحبوسة بدأت تعلو مع مرور الوقت، رجل يتكلم بارتعاب: "أنا أختنق.. شيء ما يخنقني.. أشياء غريبة تقترب مني"

أنا أيضاً رأيت أشخاصاً وأشكالاً مختلفة، كنت أحسب ان الظلام يجردك من كل أحاسيسك لكن بدا أنه يجسد حولك جميع الأفكار المتخبطة في داخلك، إنه عميق جداً، أعمق من الضوء، الخوف ليس مهمته بل إنه يجبرك على العيش مع دواخلك، وكثير منا يخاف مما في داخله.. إننا مجرد أشباح نخيف أنفسنا، كما يخيف بعضنا البعض.

في كل ليلة يبدأ الشخير قبل الحادية عشرة، أما الليلة فيبدو أن السهرة ستطول، أمسية مرحة بالنسبة لبضعة أشخاص يتسلون بجبن

رفاقهم، وجحيمية لأولئك الجبناء، كثرت أصوات الانتحاب المفجوعة الخافتة التي تخشى أن تعلو، فالأصوات العالية أثناء النوم تعتبر اختراق للقوانين.

لم تنتهي تلك الليلة على خير، إذ عثر في الصباح على شخص ميت بيننا، كان رجل بدين، متوسط العمر، يبدو أنه عانى من الاختناق طوال الوقت المظلم، وكانت صرخاته المحبوسة، تزيد حماس أصدقائنا المستهترين ليستمروا بلعبهم الدنيئة، شخص آخر، أخبرونا أنه فقد وعيه، أبعدوه عنا ولا أدري أين نقلوه، رأيناه بعد أن تجلى الظلام، فاتحاً عينيه، جثته متجمدة وأنفاسه غير منتظمة.

كان المطر غزيراً في وقت الظهيرة، يضرب على زجاج النوافذ المغلقة، تغطينا بأغطيتنا، بعضنا مجتمع، وبعضنا متفرق، وآخرون يجوبون الصالة بتثاقل وهم ملتفون بأغطيتهم، الضوء أبيض شاحب، الحشرات كلها مختبئة، لم أكن أجرؤ على الخروج من دفئ الغطاء رغم رغبتي بالتغوط، قطعت سكوننا كلمات مرتبكة، لم تلحظ عيني صاحبها أول الأمر، إذ كان جالساً وسط مجموعة من أصدقائي المرتجفين: "نحن نفتقد شخصاً اليوم، ربما بعضكم لا يشعر بذلك.. لقد قضيت معه ساعات جميلة، وتبادلنا الحكايات.. إنه رجل طيب، يقول دائماً أنه سيخرج من هنا ليعود لتلك الحياة.. لكنه لم يخرج كما ظننت، أنا أفتقده وأشعر

بالحزن لذلك.. أرجوكم أيها الرفاق لنهتم لأصدقائنا حين يرحلون، ربما سيكون حزيناً جداً عندما ينظر لنا الآن ويرى اننا نسيناه.. حضرت كلمات بسيطة أريد أن أرثيه بها وأطلب أن تشاركوني بذلك.."

وقف صديقنا وتقدم خطوتين، ماسكاً بيده قطعة كارتون تعود لعلبة سجائر، يداه فقط تخرجان من الغطاء، وجهه حزين، ووقفته توحي بالانكسار، تذكرته، إنه الرجل الذي كان يذكر كل ساعة سبب آخر أدى به لهذا المكان، ردد كلماته الباكية بشفتين ترتعشان من البرد والوداع:

"أرنو للجانب البعيد، المليء بالضباب"

"منتظراً طيفك الكئيب"

"لكي يعود لعالم حكاياتنا الطويلة"

"لنمضي معاً على قيد الأحلام"

"ونستمتع بمعاناتنا المشتركة"

"لكن دائماً ما تحدث أمنياتنا بعكس ما نتمنى"

"فأنت لن تعود.. لأن موعد لقائنا يعتمد علي"

تأثر به الأصدقاء، نهض بعضهم ليقفوا خلفه، اكتفيت بالجلوس والإنصات، أحسست بشدة ألمي، وشعرت بذكرياتي المنسية، الأيام الخوالي التي عشتها قبل أن أكون هنا، لابد أني أحتاج لها، فأنا بحاجة لشيء يخبرني بأني حي، وعليّ أن أمتلك الجرأة لأفكر بالخلاص.

5

مرت ليلة أخرى مظلمة من كانون الثاني، الضائعة أيامه في الضباب الكثيف، تقل فيه نشاطاتنا وواجباتنا إذ نقضي معظم اليوم في الصالة مجتمعين حول مدفأة نفطية ونراقب ذوبان شهرنا الثقيل بحرارتها المتواضعة، تتلوث أنفاسنا الباردة بالغاز الخانق المنبعث من تلك المدفأة لنقضي ليلتنا بسعال متناوب، وفي الصباح نجد ثيابنا وأَسِرّتَنا مبقعة ببول يعود لخزين سوائل يوم كسول.

أحسب أننا تعلمنا ان نتجرع الظلام كما الدواء المر، لا مفر من الإذعان في منجم الأشباح هذا، سمعت الأنفاس الخائفة في الليلة الثانية ولكن أقل بكثير مما سمعت أول الأمر، انقضى ما يقارب الساعتين خمدت كل الأصوات البشرية، بقيت مستيقظاً أنصت لهمهمات لهب المدفأة الموضوعة قبالتنا، نورها أحمر متذبذب يتلاشى وسط عتمة كانون الأصم، يسقط على الستارة المخملية ليوقظ شيء ما داخلي يدفعني للنظر من ذلك الشباك، يصطبغ عليها نور ضئيل، إذ تختفي كلما حدقت بها كثيراً، أراها تتباعد متماهية في الظلام.

اختلطت أصوات الشخير، فرفاقي لن يستيقظوا حتى تملأ أذانهم

أجراس الصباح، أيضاً الحراسة غير موجودة أثناء النوم، ربما إنها فرصة مناسبة لأرفع تلك الستارة المعلقة بذهني منذ أن رأيتها - كنت أنام على الأرض لمفردي كما البقية، بحيث يبعد أحدنا عن الآخر بما يقارب أربعة أذرع، ما عدا قلة أصدقاء ينامون بفراشين ملتصقين- رفعت نصفي العلوي لأجلس على فراشي وألقي بنظري على النائمين لأتأكد أنّ لا أحد مستيقظ، تصعب رؤية وجوههم الغائرة في سواد دامس، عدت للاستلقاء والتفكير بالخوف والفضول.

انقضت نصف ساعة تقريباً ولا زالت الأفكار تعرقل عليّ فعلتي، ربما أكون متهوراً وأجر بعدها من فروة رأسي كما صديقي الحالم، لا أريد ارتكاب الخطأ الذي يؤدي بحياتي بشكل لا أتمناه وقبل الموعد المؤجل، رغم أني أعيش بلا خطة وبلا هدف.

فتحت عيني على أثر ضجة استيقاظنا الصباحي المعتاد، وكنت مرتعباً جداً بسبب كابوس، تنفست بعمق بعد اطمئناني بأنه ليس حقيقياً، إذ رأيت أني أسقط من تلك النافذة بعد أن رفعت ستارتها، استيقظت قبل اصطدامي بالأرض وأنا أحلق للأسفل بلا أفكار في هواء عاصف وأمطار غزيرة.

مشينا متثائبين، نشعر بالدوار وعدم اكتفائنا بالنوم برفقة حارسين وثلاث ممرضات للحمام الداخلي، سرنا عبر ممر ضيق، تنبت على

حافتيه، أسفل الجدران المتقشرة، نباتات صغيرة غير آملة بالاستمرار بالنمو، خلعنا عنا ملابسنا ووضعناها في سلال بيضاء قرب باب الحمام، وقف الحارسان والممرضات خلف الباب المشبك بالقضبان الحديدية، ووقفنا نحن تحت المياه الحارة، نستحم وسط بركة بخارية ساخنة، كل منا يفرك جسد الآخر بصابونة تنزلق من أيدينا، نظرت من خلف متن صديقي العريض اثناء ما كنت أفرك ظهره، إلى شخصين ملتصقين، مختفيين بالبخار وبالمنضدة المليئة بالمناشف في نهاية الحمام، لا أدري ان كان الجميع يخفون رغباتهم الجنسية في هذا المكان، لكن الواضح أنها تغلبت على أفكار الخوف بالنسبة لصديقينا المحظوظين لأن الحراس لم يلاحظوهما، أعتقد أني الوحيد الذي رآهما أو ربما التقطهما شخص مثلي، ذو عينين قويتين، وغير مهتم لما يشاهد.

مادامت فكرة تقض مضجعي فعلي فعلها سواء كنت شجاعاً أو أحمقاً، انتهيت بهذه النتيجة بعد ثلاث ليال قلقة، في الليلة الرابعة وعندما اقتنعت بأني غير مراقب، مشيت بحذر صوب الستارة، لمستها بيدي المرتعشة، كانت ثخينة وتبدو ثقيلة، أمسكتها من طرفها لكي أبعدها عن الشباك ولكني فوجئت بأنها ملصقة على الحائط بمسامير تنبت على حافاتها، رجعت لفراشي وقلت مع نفسي "يجب أن أتعلم شيئاً آخر قبل فعل شيء هنا، أنسى ما أفكر به ثم أفكر بالتأقلم مع النسيان"، نمت ليلتي بصعوبة، تاركاً فضولي الجائع يصيح داخلي..

تناولنا حساء المساء داخل الصالات بسبب الأمطار، أثناء تناولي إياه نظرت لقيودي ولقيود الآخرين أيضاً، إنها الحاجز بيننا وبين أن نتجرأ أن نفكر.

جعلتني قطعة القماش العتيقة تلك ألتفت لدواخلي المليئة بالخوف، كل ليلة أسحب عيني عنها بقوة لأتمكن من النوم، رفعت الستارة، فرأيت نوراً أغمضت عيني لشدته، فتحت الشباك ووقفت على عتبته، هويت للأرض بدون شعور.. كالمرة السابقة فتحت عيني قبل اصطدامي بالأرض، زال رعبي بعد ثوانٍ، قضيت يومي أفكر بما رأيته للمرة الثانية، أحدق بوجوه أصدقائي ثم اعود لوحدتي، لا يجب أن أخبر أحداً، لا أعتقد أن الكوابيس ستتركني مادام لا يمكنني الفرار من أفكاري.. إنها المعاناة، لقد بدأت بالخروج مما كنت أعتاد عليه، هل سأبدأ بالتكفير عن خطيئتي، أم سأمضي مع صراعاتي فقط؟ لا أعرف عاقبة الأمرين كليهما، ومع ذلك الرغبة أقوى من العواقب السيئة، ربما قد منحت فرصة وبعد انتهاء مدة الفرصة ليس سوى الندم.

توقفت الأمطار بشكل متدرج طرقت آخر قطراتها المنفردة زجاج النوافذ المغلقة، عم البرد الكثيف قبل حلول منتصف الليل الذي يخنق أصواتاً وحيدة تتردد خارجاً، فالليل مذبح الصرخات المنكسرة، تتبدد عند أذني التي تدفن داخلها كل استغاثات الليل البريئة، ربما هناك الكثير غيرها تذوب قبل أن أسمعها.. عواء يمتد حتى يختفي، أو مواء

منتحب، مع ذلك فالأحياء يغطون بعمق الصمت القارس البرودة، حسبت نفسي إحدى تلك الوحوش الساهرة التي تتعالى مناجاتها معبرة عن براءتها في وقت عزلتها وبكائها..

جررت عيني من الستارة مسعفاً بنعاسي ورغبتي بالنوم، انكمشت مخيلتي وأفكاري حتى هويت في فراغ دافئ، بعد سهرة مع الفضول والقلق، والشعور بالجبن والفشل كنتيجة لمحاولتين، في المرة الأولى لم أفعل شيئاً لكن في الثانية هممت باقتلاع المسامير، اقتلعت واحداً بكل حذر وهدوء، بعدها سحبت الثاني بأصابعي وبمساعدة اسناني، إلا إنه كان ملصقاً بشدة، أيضاً جرح لي شفتي، العدد الهائل لتلك المسامير اللعينة يوحي لي باستحالة اقتلاعها..

نمت ليومين، أيقظني أحدهم وقت الظهيرة، وكنت مشبعاً برائحة دخان داكن يملأ الصالة، وقفت مذهولاً كحال أصدقائي في الممر وتولى عدد من الموظفين إطفاء اللهب المتلبد بالدخان، لأقل الساعة انتهى كل شيء حتى الدخان بدأ يضمحل بعد إحضارهم لمفرغات هوائية متحركة مدعمة بخراطيم طويلة، انقذت قطاعنا من غرق دخاني محتم.

بداية المدفأة هي التي احترقت، نقلها أحدهم ليضعها قربه، وضعها بطريقة جعلتها تنقلب على فراشه، ثم زحفت النار على الأفرشة القريبة بعد قضائها على الشخص ذاته، المفاجأة تكمن بأن النار أحرقت

الستارة المخملية ولم تبقِ غير حافاتها الملصقة على الجدار، تلك هي لحظتي الجميلة، إذ كنت الشخص الوحيد الذي أزاح ذهوله بسرعة، حدقت بالشباك العريض، تمشيت نحوه، سمعت صوت يقصدني، إنه أحد الحراس، قال: "أنت.. ذلك الشباك لا يجب الاقتراب منه".

عدنا للصالة بعد ساعتين، أحضروا لنا أفرشة جديدة وبعض الاحتياجات السابقة، وأخيراً جاءت التعليمات بخصوص الشباك، قالت المرأة الواقفة خلف الباب: "لا يسمح لأحد بالاقتراب من هذا الشباك، ستنامون أو تجلسون على بعد خمس أمتار منه"، تولى حارسان مهمة وضع شريط طويل يفصلنا عنه.

تجاوزت خطوطي الحمراء، لأتجاوز الشريط الفاصل بيننا وبين الشباك، كنت جالساً قبالة زجاجه المتصدع المغلف بالضباب عندما تداخلت أصوات الشخير متنافسة في ارتفاعها.

رسمت على ضبابه شكل القلب الذي لازال يلامس ذاكرتي منذ أيام الغرام الصبيانية، لم ترتعش أناملي وانا أخطه، مخبئاً خلف شفتي ابتسامة ضئيلة تنفذ بترو.

أمعنت النظر جيداً لأرى ظل خفيف حبيساً داخل الزجاج، حدقت بشفتي الزرقاوين وعيني غير الواضحتين، إنه شيء جميل أن يكون لك ظل ليخبرك من أنت.

6

رسمت على الزجاج كل الأشكال التي تختزنها ذاكرتي أو تصنعها مخيلتي، كانت سهرة جميلة مع ظلي البائس، وقلب وسط النافذة، يمحوه رذاذ الثلج المتساقط، كتبت عبارات كثيرة على الزجاج، مجرد رسائل ليست لأحد، تختفي بعد ثوانٍ قليلة لأكتب غيرها، هكذا لا أشعر بالملل، ولا أشعر بالوحدة، عندما تلامس أطراف أصابعي أجزاء الليل المتبخرة بهدوء، حينها أكون بلا ماضٍ، إنسان حر يعيش في عصر العبودية الغامضة..

قطع عزلتي الجميلة، حلقة ضوء لمصباح يدوي يمسكه أحد الحراس خارج هذه الجدران، التصق الضوء على النافذة إذ وقفت مرعوباً وكان الضوء العنيف يغطيني بالكامل، فقد عثروا على مخترق القوانين، الرجل الذي تبحث عنه المصابيح اليدوية طوال الليل ها هو عارٍ أمامها الآن.

كان خطأي أني بقيت وسط حلقة الضوء أمام النافذة، وخطأ الحارس أنه أطلق رصاصتي خوف طائشتين، تسببتا بتحطيم الزجاج كما أصابت احداهما كتفي الأيمن، استيقظ اغلب النائمين وحدثت جلبة بدأت

بأجهزة الإنذار، ربما ظنوا أن أحدنا يخطط للهرب فكان عليهم قتله مباشرة، أما أنا فكدت على وشك السقوط لشدة الموقف المخيف، آخر فكرة جالت بمخيلتي، كيف سأواجه العقاب والموت، ثم فرغت كل أفكاري وضعفت عيناي كثيراً، وكأني أصبحت معدم، إنها قمة الرهبة التي مررت بها، لم أجد القدرة على التفكير أو فعل أي شيء آخر، إذ بدأت حواسي تبرد وجسدي يتقلص.

الألم هو كل ما أملك، بدأت أتحسسه ينبض في كتفي، أعادني للحياة رغم ظني أنه سيسلبني منها، ولكن لو فقدت الوعي وسقطت على الأرض لاستيقظت لشدة التعذيب أو لصحوت على أثر الموت، يا لمصيري التعيس، سأرحل وأنا حاملاً الامي الأزلية، لأنهم لن يسمحوا لي بالموت بسلام وبدون أوجاع، ستكون أبشع ميتة، عندها سأصرخ حتى أعتاد الصراخ دون أن يسمعني أحد، الموت سيكون عزلتي الأبدية، وبداية حسراتي اللامتناهية، حالما يصل الحراس سينتهي كل شيء فكرت به سابقاً..

الغيوم تتكاثف والأمطار بدأت تهطل، تزداد غزارة مع كل صاعقة تمحو بشدتها أصوات الإنذار وأصوات الكلاب المتسولة تحت عنف الأمطار، إضافة للومضات التي تحول بعض لحظات الليل المظلمة إلى بياض ساطع ومرعب، أشياء كثيرة يحتفل بها الفضاء خلفي، رمقته من

خلال النافذة المكسر زجاجها، وجاءتني فكرة مخيفة، الانتحار، سيكون أسهل من الموت بأيدي الحراس، ربما سيمنحني تلك الثانية العميقة بعمق الفضاء لأستذكر أيامي الراحلة ولحظاتي الجميلة الفانية، كنت مضطربا أمام ذهول الرفاق و استفساراتهم عما يجري، حدقت بهم، أغلب اجزاءهم يخفيها الظلام، ثم سمعت أقدام الحراس مسرعة تقترب لصالتنا، عندها ألتفت لأنظر للأسفل، للفضاء الصاخب الذي ينتظر جثة لا تزال ساخنة، كأنه حفرة مظلمة لا نهاية لها، وقفت عند حافة النافذة وكان الحراس قد وصلوا لباب صالتنا وبدأوا بفتح الأقفال، دخلوا وقاموا بضرب أصدقائي بهراواتهم مستعينين بمصابيحهم اليدوية، ولكن ما إن فتح الباب حتى ألقيت نفسي من النافذة الواسعة متناسياً كل مخاوفي، وهارباً من العقوبة المهيأة لي، غير مصغٍ لصراخ رفاقي وطلباتهم بتوضيح الأمر، كان أفضل قرارٍ اتخذته أني أمسكت بعتبة النافذة، بقيت معلقاً لبضعة دقائق، آلمني جلدي بسبب البرد، الأمطار تتساقط علي بلا رأفة، تجرجرني العاصفة العاتية، كائن بائس، مثقل بالمطر، ومتجمد من البرد، جرحه عميق ينزف دم ساخن، تتحرك يداه المتصلبتان على عتبة النافذة ليصل إلى طرفها مبتعداً عن الحراس الذين يملأون الغرفة، أحس بأنهم اقتربوا من النافذة حينما لوحت مصابيحهم مهددة بالكشف عن تلك الجثة المعلقة، تمكن من الوصول

للحافة، مخبئاً في باطن شفتيه صرخات شديدة، منتظراً إحدى تلك الومضات العنيفة ليرى أين هو أو بالأحرى أين سيسقط لو فلتت يداه اللتان بدئتا تخدران؟

أغمض عينيه لبرهة، مطبقاً شفتيه، فتحهما فإذا به يرى الكون مضيئاً كعشية حرب، كل شيء أصبح واضحاً أمام ناظريه، استهواه سقف إسطبل تنزلق عليه الأمطار ببطء أفكاره المسترخية، كذلك بعض الأشجار الدائمة الخضرة النظيفة المغتسلة بالمياه المتساقطة عليها، صنعت الأمطار بضعة بحيرات منفصلة على الأرض الرملية، ولكني حتماً سأموت بسبب المسافة الطويلة بيني وبين تلك البحيرات المرتفعة مياهها لربع متر تقريباً عن الأرض، أراني الضوء ممراً ضيق يسور البناية بكاملها، أسفل قدمي بنصف متر كما اتضح لي، خشيت أني سأسقط مباشرة حالما أفلت يدي، الأمر يتطلب التشبث بالجدار، بينما ليس بوسعي فعل ذلك، القلق يعكر تفكيري كما أني عدت للظلمة القاتمة حاملاً معي بضعة صور واضحة لأماكن كثيرة، مكان واحداً منها صالح للنزول عليه بنسبة نجاة ضئيلة.

بعض الحراس بالأسفل وحراس بالأعلى، أعتقد أنهم يفتشون بين الرفاق عن الشخص المطلوب الذي لا يعرفون شكله أو رقمه المعلق أعلى صدره، أحسبهم يستبعدون فكرة ان يهرب أحدنا، لأنهم لا يحتملون

وجود شواذ لقوانينهم الصارمة.

لحسن حظي، ولسوء حظ شخص آخر كان واقفاً خلفي عند إطلاق الرصاصة الأولى، فذلك أكبر دليل على أنه المتهم، كما أن الحراس لم يقوموا بعمليات عد لتلك الأرقام المفقود كثيرٌ منها بسبب حالات الموت المستمرة، ولم يفكروا بالرصاصة الثانية التي تستقر بكتفي، أيضاً فهم بذلك سينجون من عقوبات مخصصة لهم، لأن أي خبر ينتشر عن هروب شخص منا فهم أول المعاقبين، بالإضافة لذلك فهم خلصوا أنفسهم من التفتيش بين أشلاء الليل المظلمة والموحلة بالأمطار الباردة، أما من قال إنه شاهد شخص يهرب فتم سحله لإحدى الغرف الغامضة لكي ينهوا الخبر بأوانه.

أطفئت المصابيح اليدوية واحداً تلو الآخر، وخفت حركات الأقدام، رجع أفراد الحراس لغرفهم الحديدية المغلفة، أو أماكن حراستهم المختلفة، وكأن شيئاً لم يحصل، ليس بمقدرتي تمييز وجوههم أو معرفة أعدادهم.

لا خيار لي غير وضع قدمي بحذر على هذا الممر الضيق، إن بقيت لخمس دقائق أخرى فحتماً سأهوي للأرض مغمياً عليّ، لأني لم أعد أشعر بيدي، رميت بجسدي اتجاه الجدار عندما أفلت يدي، تصرفت وأنا مغمض العينين، فتحتهما وكنت منتصباً على الممر ومحتضن الحائط

الرطب بيدين تكادان أن تخلعا، كما أن كتفي المصاب أظهر لي آلاماً جعلني أتقيأ.

جلست فوق الممر على أطرافي الأربع، تقيأت بقدر ما تحوي معدتي، ثم اتكأت للجدار أنظر لكتفي المتصبب دماً، مزقت قميصي ولففته على الجرح عسى أن يخمد الألم قليلاً.

إن بقيت هنا فربما سيميتني المناخ، تحركت قدر ما استطعت ماشياً على أطرافي الأربع كالهر الخائف، وجدت سلماً ينتهي للأرض، فنزلت مباشرة ولشدة قلقي سقطت من على آخر ثلاث درجات في بركة صغيرة، الإسطبل الذي شاهدت الأمطار تنزلق على سقفه يبعد عني عشر أمتار تقريباً، مشيت نحوه مستعيناً بأطرافي الأربع ومنتهز الفرصة، إذ لا وجود للحراس تحت هذه الأمطار، فقط مصابيح حمراء كبيرة أعلى كل بناية متروكة تشير حيث تريد وأغلبها ترسل ضوؤها خارج مكان الأشباح الصغير هذا، لا أدري لم اتجهت للإسطبل ربما بسبب جسدي المثلج، وشعوري بالغثيان رغم طغيان فكرة الهرب على بقية أفكاري.

رأيت خلال فسحات صغيرة بين أخشاب الإسطبل نور ضئيل ومتذبذب، كما سمعت همهمات، وأصوات تخفت وتعلو، صرخات هادئة وناعمة تبدو مستلذة ومفجوعة في الوقت نفسه، أنفاس مرهقة تملأ المكان، انتابني الخوف أول الأمر، مشيت حوله مصغياً لتلك

الأصوات المتداخلة، وجدت فسحة كبيرة، أقرب منفذ لتلك الصرخات وذلك النور العليل، استرقت النظر، كانوا مجموعة من الحراس يعاشرون ثلاث ممرضات فوق كوم التبن، بدو معهن أشد قساوة، إحداهن مقيدة اليدين تختفي بين رجلين بدينين، والثانية يمسك أحدهم بشعرها الأشقر، الأخرى تتنقل بين ثلاث رجال، يغطي أجسادهم لعاب أفواههم اللزج، كنت أنتقل وسط الفراغ المظلم، واستمع لتلك الأصوات تأتي من كل الأماكن المخصصة للحراس، إذ نظرت خلال ثقب صغير وسط جدار حديدي فرأيت حارسين عاريين يداعب أحدهما الآخر، وفي غرفة أخرى وجدت ممرضتان مع رجل واحد يبادلهما القبلات الطويلة، حتى تلك الطاهية البدينة رأيتها في غرفة لثلاث حراس كانوا مجتمعين عليها، أنهكوا لها جسدها الضخم دون ان تكتفي، في كل مكان مغلق كانوا يتعاشرون، فوق الأسرة وتحت الأسرة، على الأرض أو متكئين على الجدران، بلا وعي وبأنفاس متسارعة، رأيت رجلاً وامرأةً ملتصقين كجسد واحد، يتدافعان على طاولة في غرفة الحراسة الضيقة، كان يدفعها بقوة مما تسبب بسقوط أغراض الطاولة، إناء رخامي يبدو أثرياً نوعاً ما تدحرج وتحطم على الأرض، كأس وجانبه قنينة ويسكي سقطا أيضاً، وعاءان صغيران يحويان حساء ما كذلك تكسرا، مصباح يدوي، علبة عطر زجاجية صفراء، تهوي وتتكسر بالتتابع دون أن توقظ

المنهكين في إفراغ كأسي شهوتيهما.

تنقلت عيني من ثقب الى ثقب، يجذبني الوهج القليل المنبعث من فسحة صغيرة على الجدار، غرف أخرى لا أدري ما الذي يحصل بها، معتمة، وأكاد ان اصطدم بها، حتى لو اصطدمت لا اعتقد انهم سيشعرون بذلك.

هممت بالبحث عن مخرج دون التفكير بما بعد ذلك فالفرصة مغرية جداً ولو علم كل أصدقائي الآن انهم غير مراقبين لربما تغير تفكيرهم تجاه إيمانهم بأن هذا المكان لا مخرج له الا للموت.

بقيت أتنقل تحت عصف السماء وأمطارها المتزايدة، ابحث عن الجدار المحيط بهذا المبنى، أسير ببطء متلمساً بيدي المرتعشتين، التفت كثيراً، اركض أحيانا، اصطدمت ببضعة أشياء لا اعرفها بعضها يسقط واسمعه يتكسر، وأخرى لا يحدث لها شيء فقط تترك لي ألما شديداً برأسي.

تعثرت بشيء وانحنيت عليه، عرفت منذ الوهلة الأولى أنه أنبوب حديدي ليس كبيراً جداً، نصفه مدفون تحت الأرض، لا أعرف ماذا بداخله، الواضح أنه ينتهي خارج هذا المبنى، أبقيت يدي عليه وسرت بجانبه، أشعر بالطين يمتص جسدي، اصبحت قدماي ثقيلتين جداً، كل خطوة أبطأ من التي تليها، رغم أني لا أتوقف تقودني تلك الرائحة التي

تعيد لي ذاكرتي المفقودة، ترجعني لأيام مليئة بأوراق خريفية، أو ليالٍ رطبة، أقضيها مستلقٍ واتعرق بسخاء، كلما ابتعدت عن هذا المكان تذكرت أكثر، أتذكر يونيو المبتهج بنخلاته المغتسلة بأشعة الشمس الحارقة و أغسطس الحار، أتذكر نساؤه المرهقات بجني الرطب، أو المنهكات بحصاد حبات القمح الفاسدة أغلبها، الريح المحملة ببقايا ثمار شجيرات القطن التي تعلق بملابسنا أتذكر أحداهن تقول أنها إشارة بأن شبح أحد الأموات جاء يزورك اليوم.. أشياء كثيرة أتذكرها، وأخرى لا تزال مغطاة بالضباب، أخرجني من مدفأتي المتقدة بالذكريات رعد شديد جعلني أصم أذني وأرتمي للأرض محتمياً بهذا الأنبوب المستقيم.

تحتم عليّ التوقف، إذ كان هناك جدار يظهر أنه مغطى بنباتات برية متسلقة، رأيت أسفله بمساعدة البرق، شبكة حديدية مربعة تلتصق عليها فوهة الأنبوب التي تخرج منه فضلات وسوائل وأغراض مقززة، الأمر يبدو صعباً نوعاً ما، لكن لو دفعت الشبكة قد أتمكن من الخروج، وهذا ما فعلته، دفعتها بقدمي حتى خارت، ظننت أنها مشبعة بالرطوبة والمياه ويسهل التخلص منها، تحطمت الوصلات الحديدية المتقاطعة داخلها، وكانت الفكرة التالية الحفر تحت الأنبوب، حمداً لله أنه لا وجود للجدار أسفل تلك الشبكة، فكانت مجرد تربة رملية مليئة بالمياه يسهل دفعها، عملت بيدي السليمة إلى أن رأيت

المخرج كافياً لجسدي، تمددت وأخرجت رأسي دون ان يتضح لي شيء، ارتميت وأنا لا أعرف أين سأسقط وهذا كان السبب لأغلب آلامي الجسدية التي لازلت أحملها وأعاني منها، ارتطمت بشيء صلب لا أعرفه ثم هويت مباشرة بنهر واسع أخذني معه حيث ينتهي أو حيث أتيه.

لا أدري كم الوقت الذي انقضى، إذ كان موسم الشتاء أنهى ثلثي رحلته البطيئة حين استيقظت، قالوا إني نمت أكثر من شهر، كما لم تعد أنفاسي تسمع في الأيام الأخيرة بعد ان نمت ثانية، لذلك توجب عليهم دفني قرب شجرة، أو قرب قبر لآنس مع صاحبه، رأفة بتلك الروح البائسة التي لا يعرفون أمنيتها، ويضعون شاهدة قبر بعنوان مجهول حيث أنسى هنالك للأبد.

توقف العجوز عن الكلام وضغط مباشرة على مفتاح لإيقاف التسجيل في الجهاز المربع الصغير الموضوع قريباً منه على الطاولة، ماسكاً بيده بقايا سيجارة، رفع عينيه ليرى الليل يحتضر، وصديقه الشاب لازال واقفاً يرمق انحلال تلك الليلة الهادئة، تثاءب مرتين رغماً عنه ثم تظاهر بعدم نعاسه، أما العجوز مسترخياً على أريكة طويلة، ترك السيجارة بفمه ليخرج الـ CD الذي ملآه بأحداث أيامهما الماضية.

قال العجوز: "سنذهب غداً وقت المساء لنسلمه للمحامي"

– إذن سأنام الآن.

– نم بقدر ما تستطيع، ستكون ليلتنا القادمة عنيفة.

– خلصني من الكوابيس وسأنام للأبد.

بقي العجوز مستلقٍ على الأريكة بعين مفتوحة، أما صديقه فنام بسرعة على أريكة أخرى في الجانب الآخر للغرفة، فتح عينيه ليجد كل شيء قد تغير، الضوء تحول للون برونزي يصدر من الشمس القابعة وسط النافذة المفتوحة، أصوات محركات وصيحات عمال، غليان شاي ورائحة شواء وثرثرة المقهى الملاصق لشقتهما الصغيرة، كلها تدور وسط الغرفة التي كشفت الشمس عدد السجائر المرمية على أرضها، وبقع الدم الملطخة للجدران المتساقط لونها الأصفر.

وضع العجوز الـ CD في جيب بنطلونه، وارتدى قبعة مدورة، واستعد للذهاب، قال لصديقه المتثائب: "ها قد حان المساء".

– أتى بسرعة.

– الوقت يمر بسرعة بالنسبة لشخصٍ نائم.

اعتادا قضاء العصر عند بائع نقيع الزهور، يشربا كأسين لكل منهما، دكانه الصغير مركون نهاية السوق لذلك يجدون فيه الهدوء أكثر من غيره، يجتمع داخله العجزة غالباً ليس لأن صاحب الدكان رجل عجوز ولكن بسبب فائدة ذلك الشراب ودعمه لصحة البدن، فهو يحضر

تلك الزهور في الصباح إذ تكون مغطاة بقطرات الندى، ويحرص على اختيارها نظيفة كي لا يغسلها خشية أن تذهب فوائدها، يتركها منقعة في أحواض زجاجية مربعة وصغيرة، عند واجهة المحل حتى المساء وعندها تكون جاهزة للشراب.

بعد ذلك يكون مكتب المحامي قريب منهما، المحامي رجل متوسط العمر، جسده منحنٍ قليلاً، يرتدي عوينات بعدسات طبية مدورة، لون بشرته بلون مجلة صفراء عتيقة، حتى خمن العجوز انه اكتسب ذلك اللون بسبب نومه الكثير على الصحف والمجلات، كلما دخلا لمكتبه يجدانه بتلك الحالة، ولكنه سبب مقنع لانطباع بعض الحروف على وجنته، يتكلم بلباقة ولا يمنح فرصة كبيرة لمن يكلمه، عندما يتطلب كلامه مصدراً فإنه يحضره من على الرف المليء بالكتب مباشرة وللمرة الأولى دون البحث عنه بين كتبه، يده اليمنى تتحرك باستمرار، وعيناه لا يرفعهما أبداً، أنفه دقيق وشفتيه صغيرتان كما انه حليق الذقن دائماً.

تعشش العناكب بكل زاوية لمكتبه، رغم انه ينظفه دائماً بمكنسة تشبه مكنسة عجوز ساحرة، يضعها قريبة لكرسيه الخشبي المقابل لباب مكتبه الزجاجي، لديه مروحة أرضية صغيرة تبدو عليها آثار التصليحات الكثيرة لكن وجودها يقلل نسبة الغرق في برك العرق الصيفية خصوصاً وقت المساء.

وضع الـ CD في جرار ملصق بأسفل طاولته المكتبية، ثم وقف ووضع يده على كتف العجوز وقال معلقاً: " ستكون قصة مثيرة.. أخبراني بكل ما تتذكرانه، أعدك بالبحث عن قصتك وعن ذاك المكان المجهول الذي أخبرتني به سابقاً والذي سأتعرف عليه جيداً بواسطة هذا الـ CD"

قال العجوز: "سأوافيك بكل ما نتذكره أنا وصديقي"

– أرجوكما أن تستمرا.

– حسناً والآن أعطنا ثمن ما أعطيناك.

– يجدر بك ألا تطالب بالمال فقضيتنا مشتركة.

– لا تكن مخادعاً أيها المحامي.

– أمزح فقط.. ثم أخرج أموال ورقية وأعطاها للرجل العجوز.

تكلم العجوز وهو يهم بالخروج: "سمعت أن أصحاب الجرائم المسائية في قبضة الحكومة.. أهو كلام صحيح"

رد المحامي: " لازالوا مشتبهاً بهم بالنسبة لي، رغم أن الحكومة قد أكدت الخبر وبثته للأعلام"

عندما خرجنا قال لي: "أنا لا أتكلم لأجل هذا الـ CD التافه، بل لأننا نصغي لبعضنا البعض" وكنت أعرف هذا الأمر دون الحاجة ليخبرني به.. انتابني وقتها حزن عميق لم يصبني من قبل، حين تذكرت جدتي التعيسة وحظها العاثر بالحياة.

الـCD الثاني

تحدثت عنك لرفاقي الجدد في ذلك المكان المجهول الذي
آل إليه مصيري، كل شخص أخبرته عنك يكون رده:
"أعرف شخصًا بهذه الصفات، كان زميلي فيما مضى"

1

حقاً هي ليلة عنيفة، راح ضحيتها رجل يبدو أنه كان عائداً لبيته في وقت متأخر، لا يمكننا ارتكاب خطئ واحد تجاه قوانيننا الخاصة بتلك الليالي الدموية، أبسط زلة قد توقع بنا وتكشف غموضنا للمتحرين عن الجرائم المسائية المجهولة، أخبرني في ليلتي الأولى معه عندما قتل شخصاً خائفاً أمام عيني وسط سكون الليل وبعيداً عن ضوء القمر الشاحب، قال إن مهمتنا الأولى ليست قتل الناس بل سرقتهم، ولكن لا يمكننا انجاز السرقة دون القتل، لأن القتل يزيد القضية غموضاً ويغلفها بالرعب، ويبعد الشك عن أناس بسطاء مثلنا أنا العجوز المتعب وأنت الشاب الفقير، كذلك فسرقاتنا مختلفة عن بقية السراق، لا نسرق الساعات اليدوية أو الخواتم أو أي شيء من هذه الأمور، فقط نصف الأموال التي نجدها، فعندما تأتي الشرطة في الصباح أو في أي وقت متأخر تحدده لا تجد شيئاً مسروقاً، فقط قضية قتل مبهمة.

في مسائي الأول معه كنت خائفاً منه أكثر من أي شيء آخر، ولم أفكر وقتها لم تبعته، حين قال لي: "اتبعني"، ولم أفكر إلى أين يسير حين كانت قدماه تقطعان الشوارع الفارغة دون تعب، ولم أفكر فيما إذا

كان سينقذني من ضياعي أم يلقي بي في التهلكة، ولم أفكر فيما إذا كنت مستعداً للعمل معه دون معرفة عمله مقدماً، ولم أفكر إذا كان سيعاملني أفضل من جدتي أم سيضربني كل يوم، ولم أفكر إذا كان هذا الرجل مغتصب للأطفال أو مربي لهم، ولم أفكر إذا كان سيتوقف عن السير أم يقضي حياته يمشي فقط، ولم أفكر بالهرب وأنا أتبع خطواته المتناسقة، بل قبل كل ذلك لم أفكر من هذا الرجل المجهول الذي أتبعته وأنا خائف حتى من الجدران المرتفعة المحيطة بالأزقة المليئة بصراعات الهررة والفئران التي تتقافز تحت أقدامنا، لم يكن مهتماً لها، أما أنا فأقفز مرتعباً كلما مرت فأرة هاربة أو قطة راكضة، تحت قدمي الحافيتين.

مشكلته أنه لا يتوقف عن السير ولا يتكلم، ومشكلتي أني تعبت من السير والكلام، ولا أعرف شيء عن المشي في الليل، قد أسقط في أية لحظة بعد أن رأيت كل شيء يضمحل في عيني، وهذا ما حدث فعلاً حين رأيته يختفي تماماً وهو مستمر بسيره للأمام، وكأنه ظلال فقط.

قبل أن أجده او قبل أن يجدني، كنت جالساً على الدرجات الأخيرة للسلم المؤدي للطابق الثاني لفندق المرحومة جدتي، بعد ان أمرتني بالخروج من الغرفة حين رأت المياه بدأت ترتفع بشكل مرعب، في يوم المطر المشؤوم ذلك التي كانت هي إحدى ضحاياه الكثيرة، انتظرتها وانا

ارتعش إذ كان الماء يرتفع باستمرار وكلما تجاوز درجة رفعت جسدي للدرجة التالية، لا يمكنني الذهاب للطابق الثاني لأني أظن أن كل تلك الأشباح الليلية تأتي منه، اضطررت للبقاء على السلم حتى توقفت الأمطار على بعد درجة واحدة عن قدميّ العاريتين، ولم تأتِ جدتي، صرخت وأنا لا أزال على السلم: "جدتي.. جدتي"، كان صوتاً وحيداً ينطفئ بسرعة وبدون صدى، وقفت وصرخت لها ثانية، حتى أيقنت أنها لا تسمعني، فربما خرجت للشارع تبحث عن لائحة علاجاتها.

وجب عليّ الذهاب للطابق الثاني، فمياه الأمطار لا تزال تملأ البيت دون أن تنقص، والليل لا يزال بطيئاً ولا يبشر بخير، صعدت وكلي خوف رغم أني لا أسمع شيئاً ولا أرى شيئاً أيضاً، ألتمس الطريق بيدي، حتى توقفت عند جدار فجلست متكئاً عليه، وعندها سرقني النوم قبل ان أبكي لشدة الخوف الذي لم أعد اعرف مصدره الحقيقي.

استمرت عمليات تفريغ المياه حتى الصباح الغائم، سمعت صرخات مختلفة يعج بها الشارع، بعضها أصوات حادة وأخرى بواسطة مكبرات الصوت، فربما الشوارع مليئة بأطفال يبحثون عن جداتهم العجائز، ورجال أمن يساعدونهم في ذلك، ربما أضطر للخروج للشارع إذا لم تأتِ جدتي، فأحسبها لا تزال تطارد المياه المنجرفة بحثاً عن لائحة تقويم علاجاتها الكثيرة، قد تكون الان داخل المجاري المبنية تحت الأرض

والتي ينتهي مصير الأمطار إليها، وإن لم تكن داخل مجاري المدينة فربما تكون قد تبعت الأمطار للنهر المحتضن لمياه تلك المجاري، أو ربما باتت تبحث داخل المستنقعات المتطرفة البعيدة قليلاً عن فندقها، إنها تتعب نفسها حقاً، رغم أني غير متأكد أنها ضمن إحدى تلك الأماكن التي خطرت لي، والتي أتذكر أني رأيتها قبل مدة زمنية ليست قصيرة، حينما اصطحبتني مشياً على الأقدام من خلال تلك المجاري إلى بيت امرأة عجوز مثلها أجرت عملية الختان لعضوي الذكري، جدتي تقول لي: "ما دامت المجاري فارغة من المياه فعلينا استغلالها بالسير لنصل بسرعة وبطريق مختصر فمنزل تلك المرأة يقع في نهايتها المطلة على النهر"، لا أعي شيئاً مما تقول لكني الآن أظن أن تلك المجاري هي الطريق المفضل لجدتي في كل ما تقصده.

المياه داخل الفندق نزلت لمستوى قريب عن الأرض، وقفت على نهاية السلم مهماً بالنزول للأسفل وتفكيري منصب على البحث عن تلك المرأة المتشائمة، التي لا أدري إن كنت سأعتاد قضاء الليل بدونها في حال لم أجدها، كانت إذا خرجت للشارع ولو للحظات قليلة تقفل كل الأبواب المؤدية للخروج وتبرر جنونها بقولها: "أخاف أن يدخل شخص للفندق فلا يجد أحد غيرك، فيأخذك ويخرج"، وهذه الفكرة وحدها تصنع لي أشباح تأتيني أثناء النوم.

وقفت عند منتصف السلم، سمعت أصواتاً تتقدم باتجاه باب الفندق المطل على الشارع، رجل يقول بصوتٍ عال: "هذا الفندق مغلق منذ عشرين عام فالبحث داخله سيكون مضيعة للوقت"، وآخر: "المياه كانت عالية جداً قبل أن نفرغها، فلابد ان بعض المفقودين داخله، ثم ان الامر لا يستثني المباني المغلقة".

رغم ان بوسعهم الدخول من النوافذ لكنهم أخذوا يضربون الباب الخشبي قاصدين تحطيمه، لا أتوقع أنه سيصمد طويلاً أمام تلك الضربات التي كان صوتها يدوي داخل أعماق الفندق، شعرت ببدني البارد يرتعش، بقيت مضطرباً، كنت أتخيل الأشياء بهيئات مخيفة، ظننت أنهم جاؤوا ليسرقوا الفندق أو يحرقوه وأيضاً يقتلون كل من يجدونه داخله، وإذا كان طفل فقد يأخذوه معهم ويذهبون.

أعرف طريقاً للخروج، رغم أنه غير صالح كطريق خروج، لكنه في حالة حدوث شيء ما فهو أفضل وسيلة للفرار، يقع في الطابق الثاني، نهاية ممر ضيق، لا يرغب أحد بدخوله، تقول جدتي إن أفعى تسكن هناك منذ أيامها الأولى في الفندق، كانت تتسلل للغرف في فترة حياتها الأولى، إذ يعثرون في الصباح على امرأة أو طفل أو رجل ميت بسبب سمها، حينما كان يقصد الفندق كل أنواع الناس، ثم ان تلك الأفعى المخيفة والضخمة اختفت بين جدران الفندق عندما طاردوها سنة وثلاثة

شهور ليل ونهار، وكانوا يملأون الجحور بالنفط ذي الرائحة القاتمة حتى امتنعت معظم النسوة عن الدخول للفندق بسبب رائحة النفط دون معرفتهن بوجود تلك الأفعى التي بقيت سراً حتى اليوم، لا يعرفه غير من يدير الفندق، وآخر ظهور لها كان عند ذلك الممر المحتوي على باب ذي سلم ينتهي بالأرض، رأتها جدتي ضخمة جداً وذات حركة بطيئة توحي بعجزها، ثم أوصتني بالابتعاد عن الممر، رغم أنه مغلق منذ آخر محاولة فاشلة للقضاء عليها لكن جدتي تحب دخول الأماكن المغلقة.

صمد باب الفندق الخشبي أكثر مما توقعت، إذ كان عليهم ان لا يفكروا بكسره منذ البداية، لأنه وضع في أيام الرخاء والسخاء للفندق حين كان صانعوا الباب موقنون أن مالك الفندق سيدفع لهم الأموال بلا عد، لذلك صنعوه بكل ما يجعله مميزاً ومتفرداً وقوياً بحيث لا يفكر أحد بأنه سيسقط في يوماً ما.

تقول جدتي أن احتفالاً كبيراً أقيم في الفندق، حضره مدير المدينة وشخصيات أخرى ذات مناصب عالية وسيدات جميلات، حينما أحضر الباب البرونزي اللون ملفوفاً بالورد الأحمر الاصطناعي، كما أمر السيد بأسبوع مجاني امتد لأسبوع آخر بسبب تلك الفرحة العابرة.

فتح الباب ولكنه لم يقع على الأرض ولم يتمكنوا من إحداث ولو شق صغير فيه كنتيجة لضرباتهم العنيفة والمتتابعة، إذ اهتدوا إلى كسر القفل

الحديدي المختفي بين مصراعيه، ربما لو كان سيد الفندق لا يزال حياً ورأى هذا المشهد لكانت إحدى بوادره هي ارسال مبالغ مالية أخرى لصانعي الباب الذي ظننت أنه مجرد باب عادي كل فترة وجودي في هذا الفندق.

دخل ثلاثة رجال غرباء، أخفى الظلام العتيق المخيم في الفناء معظم ملامحهم كما أخفى ألوانهم أيضاً، الواضح أنهم تحسسوا رائحة مقيتة حالما دخلوا، إذ ارتدوا كماماتهم، وقال أحدهم مخاطباً صديقيه: "المكان مليء برائحة تفسخ، كما أنه يبدو مهجوراً" رد عليه أحدهم بعد أن فتح مصباحه اليدوي على الأرض: "هناك الكثير من القطط الميتة" دنا لإحداهن، مسكها بيده ثم تركها: "ليست كل الرائحة لهذه القطط" تأمل المكان قليلاً وأضاف:

"أظن أن أناساً كثراً يرقدون في هذا المبنى، فهذه الرائحة قديمة وليس لها مصدر غير أناس موتى"

كان غرض دخولهم للفندق هو تنفيذ لأمر يقتضي تفتيش كل الدور والمباني بحثاً عن ضحايا الأمطار التي بدأت ترتفع أعدادها بازدياد الوقت وازدياد صرخات النسوة التي يبددها الهواء الطلق في الشوارع الفارغة من الحياة في ذلك اليوم التعيس.

لم يحصل الرجال الثلاثة على نتيجة جراء تفتيشهم في الفناء، فكان

عليهم الخروج لأن الغرف موصدة، لكن أحدهم استهوته أسرار هذا الفندق الكثيرة وبقي مع مصباحه اليدوي فقط بعد ان تركه صديقاه وخرجا، كان يعرف ان ذلك الصمت وتلك الرائحة يدفنان تحتهما الكثير من المفاجآت المخيفة.

لم يحس بوجود صبي مختبئ في ظلام السلم، لأن تلك الرائحة المنبعثة من الغرف المغلقة كانت تجره إليها، وتزيده يقينا كلما اقترب بأنها رائحة شخص ميت منذ مدة طويلة، لذلك كان يظهر عليه بعض القلق، ربما أن فكرته انصبت حول وجود وحش يعيش هنا ويحضر كل ليلة فريسته من إحدى القرى التي يسهل عليه الدخول لبيوتها القصبية، لا شك أنه يفكر هكذا لأنه يزداد خوفا كلما اقترب أكثر حتى بدا كأنه يقترب ويتراجع بالحركة ذاتها.

اظهر عدم استعداده لتلقي المفاجأة التي لا يعرف عنها شيء أي شخص اخر عدا تلك العجوز الضائعة، لم يكن للطفل اية معرفة عن تلك الغرف حاولت ان تخفي سرها عنه قدر استطاعتها، ولذلك كانت تحبسه بغرفتها عندما تخرج لغرض شراء الطعام او أي غرض يطرأ عليها.

بقي الصبي يراقب الرجل المتوتر الخائف من اكماله لمهمته، ليكشف ذلك السر المختبئ في ركام قلب السيدة العجوز و يخبرها بأن لا أحد

سيعرف شيء عنه مادامت هي سيدة الفندق.

مرت ساعة كاملة، من الثامنة وحتى التاسعة صباحاً دون ان يقوم الرجل بفتح احد أبواب الغرف، أصدرت الساعة صوتاً عالياً على شكل ثلاث دقات غليظة ومتسلسلة، كانت ساعة كبيرة معلقة فوق الباب الخشبي بميل راقص يتدلى منها ويصل طوله لنهاية الباب العلوية، بعد الدقة الأولى كان الرجل قد أفلت مصباحه اليدوي أثناء ما كان يضيء على اللوحات المعلقة على الجدران المغطاة بالغبار وببيوت عناكب ميتة، بعض اللوحات تحتوي على أشجار تبدو باهتة ولكن اكثرها فقط إطارات ذات زجاج مهشم دون ان يكون رسم داخلها، أغلبها مائلة للأسفل ومهددة بالسقوط لكنها لا تسقط، فقط متخذة وضعية للوقوع للأرض، أيضا كان يضيء بمصباحه على تلك الأيادي الطينية المطبوعة على الجدران، أو الصحف، أو ينظر خلال الثقوب دون ان يرى نهاية مضيئة، حاول جيداً ان يكتشف شيئاً ما قبل ان يتعجل ويخاطر بفتح احد الأبواب، فربما يوقظ الوحش النائم ان تجرأ بفعلته، لكنه لم يصل لنتيجة مقنعة إذ تبين له ان كل تلك اللوحات والآثار ليس لها صلة بالقضية التي يريد كشفها، فهي مجرد آثار وبقايا راحلين كانوا هنا قبل ان يصير هذا المكان مهجوراً.

بعد الدقة الثانية بدا الرجل مرتعبا لأقصى حد، إذ كان الصدى

العميق يصنع أصوات كصرخات بعيدة ومشتتة، كصرخات أطفال أو بالأحرى صرخات غير بشرية، فكان خوف الرجل في ذروة فورانه، حتى أنه أحس بأن الظلام يخنقه وأن تنفسه بدأ يقل، لقد أثبت كم أنه جبان، فهو لا يستحق تلك الترقية التي قد يحصل عليها إن تمكن من إتمام تلك المهمة التي ليست له، خرج من النافذة إذ كانت قريبة لسطح الأرض من داخل الفندق لكنها مرتفعة على الأرض التي تطل عليها خارج الفندق، أي ان الفندق أكثر ارتفاعا من الأرض المحيطة به، فلذلك كان خروجه سهلاً لكن وقوعه على الأرض غير جيد وسبب له بعض الآلام التي من الممكن أن تبقى معه حتى يوم مماته، ولسرعته العالية في الهروب فإنه هرب حتى قبل أن يسمع الدقة الثالثة للساعة ذات الميل الراقص.

إنها من أسرار العائلة، لا يمكن أن يعرفها الغرباء، كما أن زوايا الفندق مليئة بالتمائم المغلفة بالغبار كلها تعمل على بث الخوف لأي شخص غريب يحاول العبث داخل الفندق، إنها من صنع السيدة العجوز تعتبرها وسيلة دفاعها الوحيدة للحفاظ على خفاياها الدفينة من تلصص الفضوليين، كانت تتمنى لو ينتهي هذا السر العظيم مع انتهاء حياتها، وفكرت في شأن طفلها واهتدت بالنهاية الى انها ستقوم بإرساله لأقرب دار أيتام ما ان شعرت بقرب اجلها المحتوم، لم تفكر ان بقائه في الفندق

وحيداً سيصنع منه شخصاً مجنوناً أو شخصاً متوحشاً، بل كل تفكيرها انصب على انه سيكشف تلك الأسرار التي أخفتها عنه طيلة فترة حياته، دون أن تقول لنفسها: "وماذا سيحصل ان اكتشفها وأنا ميتة" لا بل كانت خائفة جداً ان يأتي اليوم الذي سيفتح به جميع الغرف الموصدة، وهو آتٍ كما يوم موتها، وكانت تقول مع نفسها بأنها ستحبسه معها في الغرفة ان فاجئها الموت وعجزت عن التحرك.

ذلك السر ان انتقل لشخص فانه يستهويه ويبقي صاحبه داخل كابوس لا يكاد ينتهي، ويتركه في معاناة صداعية مستمرة، لن ينتهي عذابها إلا أن يخضع الشخص إلى شرط السر الذي لم تعرفه العجوز إلا بعد تنفيذه، كل مرة تقوم بتنفيذه فأنها تتمكن من النوم لبضعة ليال.

هنالك تفسيران: إما إن تلك اللعنة المرافقة للسر قد بطلت، أو إن ذلك الشرط كان مجرد إجراء إجرامي نفذته العجوز وهي منصاعة لهوس جنونها عندما بدأت حياتها السوداء تحت رأفة تلك الأصوات والأطياف المزدحمة في الفندق والتي بذلت جهدها كي تخبر طفلها انه لا وجود لشيء مخيف، عندما كان يخبرها بما يسمعه او يراه.

هذان التفسيران هما مبرران مقنعان ليساندا فكرة تنص على ان الصبي ليس بشخص مجرم، رغم أنه اطلع على السر في طفولته، إلا إن ألماً من تلك الآلام لم يصبه، وأية فكرة بالقتل لم تراوده، ولكنه كان قلقاً

حيال ان يكون شخص ملعون كما جدته.

في إحدى زياراته للفندق وكان وقتها تجاوز الخريف العشرين من حياته، قصد الفندق ليشم رائحة جدته ، جلس لما يقارب نصف ساعة على كرسيها المقابل للنافذة، داخل غرفة المعيشة، استنشق رائحة المسك والبخور العتيقة، بالإضافة لرائحة القيئ ورائحة اللحم المتفسخ، رغم نتانة الاستنشاق الا انه ابتسم، يبدو انها ابتسامة حزن عميق، رجعت ذاكرته للوراء، انتابه شعور بالأسى، إذ انه اخبر صديقه العجوز فيما بعد: "عندما نتذكر أيامنا الحزينة الماضية نشعر بالحزن، وعندما نتذكر أيامنا السعيدة نشعر بالحزن أيضاً"

أثناء خروجه من الغرفة مس شعره الكثيف شيء ما معلق في العارضة الخشبية العليا لإطار الباب، لم ينتبه وقتها كم صار طويلاً، بل اكتشف الوقت الطويل الذي لم يزر فيه بيت طفولته، آخر زيارة له قبل هذه كانت في عامه الرابع عشر، عندما كان الفندق أول ملاذ للاختباء، له ولصديقه أثناء ما كانا عائدين من مهمة مسائية وقد اصطدمت أعينهما ببنادق تبرق تحت ضوء خفيف يصدر من مصباح معلق على عامود حديدي بجانب بيت يقف ببابه رجال أمن بعدد غير قليل، وكأنهم حضروا للتحري عن جريمة حدثت داخل ذلك البيت.

غادرا الفندق دون أن يلتفتا لأي شيء، ودون ان تستهويهما أية

ذكرى حتى ولو كانت عابرة.

رفع رأسه ليرى ما الشيء الذي أحسه يمس شعره، كانت قطعة قماش أو بالأحرى خرقة قماش ملفوفة بشكلٍ مربع، عليها بقع صغيرة تبدو كقطرات دهنية جافة، اقتطفها بدافع الحنين، وكانت تفوح برائحة مسك باهتة، لقد عرفها منذ ان أمسكها بيده، تميمة لإبعاد اللعنة، إنها من صنع العجوز، وأمر مؤكد أن السيدة تعلمت صنعها من صديقتها، المرأة التي يقع بيتها بقرب نهاية مجاري مدينتنا، تلك التي أجرت الختان لعضوي الذكري.

مزق القماش البالي ليقرأ الحروف الزعفرانية السائلة التي كتبت في الورقة المطوية عدة طويات، فتحها بحذر لأنها تكاد ان تتقطع لقطع صغيرة، حتى وكأنها ستذوب بين يديه حينما كان يقرأها ويمعن النظر بطلاسمها، تحولت عيناه لهيئة توحي بتعجبه، أو بأنه يقرأ عن شيء فعله دون ان يعرف خطورته، فقد أودعت العجوز سرها بين يديّ الرحيم ليجنبه ابنها:

" يا إلهي الرحمن، يا إلهي الرحيم، لا تقوِ يده على فتح أبواب الغرف، وإن فتحها فاحجب ما بها عن عينه، وإن رآهم فلا تجعله يأتي بمثلهم".

تذكرت مقصدها: لم أصعق وأنا أفتح باب إحدى تلك الغرف، في يوم

رحيلها، بل شعرت بالأسى على حال رجل ممد على السرير، بلا أحلام وبلا رائحة نوم، يكاد الدود أن يصل لعظامه، ولم يتبق من ملابسه سوى أوصال رفيعة كالخيوط، غارق برائحة العفن والتفسخ، ولازالت جثته مرممة ببضعة قطع لحم متشققة، و شحم رائب نتن يدعو للتقيؤ مباشرة، والسيء في الأمر أن أشعة الشمس لم تدخل للغرفة قبل أن يأتي لها الرجل الميت ولما بعد موته، كحال أغلب الغرف التي عمدت العجوز على غلق نوافذها وإسدال الستائر عليها، لذلك كانت الغرفة تبدو كقبر واسع مبني تحت التربة، تتخللها خيوط نور تصدر من الثقوب الضئيلة في الجدران أو السقف الذي يقطر بقطرات مطرٍ ناعمة طيلة أيام الشتاء المظلمة.

لقد أدركت وقتها كم كنت بريئاً حينما اقتربت من الرجل الميت بدون خوف، ولمست أعلى جثته براحة يدي وخاطبته بعاطفة بالغة:

" يا إلهي... من فعل بك كل هذا أيها الرجل المسكين"

كنت وقتها لا أعرف شيئاً عن الجرائم التي خلفتها جدتي، تلك المرأة الملعونة التي لا تسمح لأحد دخل فندقها بالخروج. لقد كانت تقضي عليهم في الليلة الأولى بواسطة عشاء مسموم، لم تخبرني بذلك بل هو حدسي، ولا أدري لم أصررت على تصديقه.

أما في ذلك اليوم حين اكتشفتُ سرها، فكنت كمن أمسك طرف خيط

من ضفيرة دهرها الذي لم يمنحها فرصة التوبة الأخيرة، للموت بدفء، إذ كل ما كانت تبحث عنه طيلة حياتها هو نوم هادئ وطويل.

وفي اليوم، نفسه الذي اختفت في صبيحته، لم أكن قد فتحت كل أبواب الغرف، رغم أني عرفت ما بها بواسطة الرائحة المتشابهة، ولم أكن اعرف من صاحب تلك الجرائم البشعة، لقد كنت طفلاً ساذجاً ينوي الخروج للبحث عن جدته الضائعة، ولا يملك فكرة عن تلك الدوامة الغامضة التي تسمى الموت.

سحبت يدي من على الجثة بعد أن شعرت ببرودة مرعبة، وما أخافني أكثر سماعي لأصوات الفضوليين قريبة من باب الدخول للفندق، ربما أنهم الرجال أنفسهم عادوا مرة ثانية، ولا أعرف سبب عودتهم، لكني خائف جداً إن كانت جدتي صادقة بأنهم سيأخذونني معهم ويذهبون.

هربت، وفكرتي الأولى البحث عن السيدة العجوز، أما فكرتي الثانية فهي الخوف الذي يتملكني، اتجهت مباشرة صوب مسكن الأفعى، لأني سمعت أصوات تقترب نحو الباب، رأيت الأفعى للمرة الأولى والأخيرة، كانت ضخمة وطويلة وعاجزة عن الحركة، ملتفة وسط الممر الذي تغلقه بحجمها، أتذكر أني سحقتها دون قصد عندما كنت أتجاوزها بحذر، ولكنها كانت مسالمة جداً وتركتني أمر بدون ضجة،

انزلقت بواسطة السلم الصدئ الركيك، بسبب خلوه من الدرجات وسقطت مباشرة على الأرض، وجدت نفسي وسط حديقة مدمرة بفعل المناخ القاسي، أغلب أشجارها متساقطة، والبقية غير المشذبة تلوح بالسقوط، غارقة بمياه أمطار الليلة المشئومة، ومسورة بجدران مهدمة، وكان الفندق يبدو أكثر وحشة وهجراناً من الخارج، النوافذ مظلمة والجدران منحنية تخرج من ثقوبها أسراب السنونو الهادئة.

كلما ابتعدت أكثر عن الفندق أراه يزداد كآبة، وكأنه قلعة مخيفة، لا يسكنها غير أرواح حزينة لأشخاص منسيين داخلها، كنت أسير للوراء وعيناي مثبتتان عليه وهو يغرق بتمهل، أفكر بجدتي وأفكر بعودتي له، حتى تلاشى عن ناظري، مختفياً في البعد.

الجدران الصامتة، والظلال الشاحبة، مصابيح مكسرة متدلية من الأعمدة المائلة، عربة بائع "شعر البنات" المحطمة على الرصيف، صحف ومجلات متطايرة، دراجة هوائية مرمية وسط عراء الشارع المتستر بأوراق الأشجار التي جلبتها العواصف، قطط حزينة مختبئة، بقايا برك متجمعة في حفر الطرقات، وسلال القذارة التي تتقاسم محتوياتها الرياح ذات الأصوات المتناوبة مع الأصوات البشرية البعيدة وغير المفهومة، وجوه ساذجة تراقب الكون المضطرب من وراء الزجاج المصدع لنوافذهم المطلة على الشارع، كلها كانت تطارد طفل تائه بين

الأزقة باحثاً عن جدته التي لن يجدها.

والذي ألقت به الأزقة عند دكان بائع الخردوات، رجل خمسيني ضخم، تفوح منه رائحة الخمر، ولا تبشر ملامح وجهه بخير، يرتدي بنطلون مرقع مع سترة صفراء عتيقة ومتهرئة، جالس على كرسيه خلف طاولة تغلق نصف مقدمة الدكان، عليها أجهزة تلفاز ومذاييع وساعات معطوبة كلها كما يبدو، كان الرجل الوحيد الذي يعمل في ذلك اليوم، توقف الطفل قبالة الطاولة وكان أقصر منها بقليل، قال:

" ألم ترَ امرأة عجوز"

رد الرجل بصوته الأجش دون أن يحرك عينيه وتوقف عن قيامه بمسح شاشة تلفاز بقطعة قماش:

" ما هذا الجنون يا إلهي، هل بدأ التلفاز يعمل!"

– ألا تسمعني يا رجل.

مد رأسه الكبير من خلف التلفاز وقال: "ماذا تفعل عندك أيها الطفل"

– أنا أبحث عن جدتي، ألم ترها؟

قال بصوت هادئ مخاطباً نفسه: "أسئلته غبية، ولكن وجهه لا يفوت"

– لم أرَ غير وجهك الجميل اليوم.

هم الطفل بالتحرك وهو متعب ليواصل طريقه، ولكن الرجل اعترضه وقال بنبرة خبيثة، وكان الطفل يبدو كالنملة أمامه:

" إلى أين يا عزيزي؟ هل ستذهب دون أن تلقي التحية على صديقي الذي بدا سعيداً لمجيئك لي"

لم يفهم الطفل مقصد الرجل، وتراجع للوراء بعد شعوره بالخوف، إلا إن الرجل حمله على متنه وهو يضرب بيده على مؤخرة الطفل ويردد:

"ستكون وجبة جميلة"

جلس على كرسيه، و خلع عن الطفل بيجامته قائلاً: "لذيذ جداً" ماسكاً قدميه، وواضعاً إحدى يديه على فمه، وبينما هو مبتسم والطفل يصرخ من بين أصابع الرجل، كان قد أمتلأ الدكان بدماء ساخنة تناثرت فجأة على الجدران مع أشلاء صغيرة من رأس الرجل المغتصب، إذ ساد الصمت لوهلة ولم يعد هناك غير دقات القلب الخائفة، للطفل المصطك الذي تجمدت صرخاته، وغزا جسده الذبول، هوى للأرض من بين يدي الرجل الجالس على الكرسي، رأى ظل طويل مقابل الدكان على بعد بضعة أمتار يرتدي معطف طويل، وقبعة مدورة، حاملاً بيده اليمنى مسدساً يخرج الدخان من فوهته، ذهل الطفل ومشى على أربع مبتعداً عن

الدكان، ثم نهض ونظر للرجل الغريب، دون أن يعرف ماذا يفعل أمام عجزه عن الكلام، وارتعاش بدنه بالكامل، حاول سحب عينيه ببطء مبتعداً قدر الإمكان عن هذا الزقاق المرعب، لكن صوت حاد أوقفه، حين قال له الرجل:

"اتبعني"

2

أرسلنا عشر تسجيلات للمحامي، الذي قال لنا عند استلامه الـ CD العاشر "إن الأيام بدأت تتراكب، وأظن أن الماضي الذي تبحثان عنه أصبح قريباً جداً"

كانت التسجيلات تحتوي على كل ما في حياتنا، أو بالأحرى كل ما نتذكره عنها، إلا سرنا، فلم نذكر أو نلمح البتة إلى شيء من تلك الجرائم التي كانت مصدر رعب المدينة، فهذا الشيء لا يعرفه أحد غيره هو وغيري أنا، وثمة معرفة أخرى لا نهتم لها، فربما الله يعلم أيضاً، وكان الرجل العجوز يعلق قائلاً: "إن كان الإله يرانا، فليستمر بمراقبته الصامتة، فهو لا يخبر أحد بما يراه".

كان لجرائمنا وقت محدد لا نتجاوزه، بل هو كالموعد الذي نؤمن بأننا لو أخلفناه لوقعنا في المصيدة، وهذا الشرط يبعدنا عن العبث، ويجعل قضيتنا ذات مبادئ ومصداقية، وهو من اكتشف ذلك القانون، أعني الرجل العجوز، فقد قال لي في بدايتي معه: "سترنا الوحيد هو أمطار الشتاء" وبالفعل، لم نرتكب جريمة قط إلا تحت أمطار الليالي الشتائية الغائرة في الظلام والسكون البشري.

اعتدت على العمل بسهولة، حقاً كنت خائفاً في أول ليلتين، وشعرت ببرودة قارسة تفترس أناملي وأنا أمسك بالمسدس، حتى بدت مخدرة، وعاجزة عن الضغط على الزناد، وكنت مغمضاً عيني ومطأطئاً وجهي للأسفل، أطلقت النار دون أن أنظر للقتيل وهو يتمايل أمامي ويطلق أنات وداع واستغاثة غير مسموعة، قال لي العجوز في تلك الليلة ونحن جالسان في غرفة مضاءة بضوء أحمر، ومغلقة نوافذها التي يرتطم بها المطر: "في المرة القادمة عليك أن تفكر بالرصاصة وبالرقبة التي ستطلق عليها، دون أن تنظر للحياة التي تدب في جسد الضحية أو الموت الذي تحمله الرصاصة".

أيضاً من جملة القوانين التي نتبعها أن نطلق الرصاصة على الرقبة من الخلف، بحيث يقف المنفذ للمهمة وراء القتيل وينفذ ما عليه.

لم أرتبك، أو أتردد في الليلة الثالثة وفيما تلاها، وأمسى العمل اعتيادياً لا يحتاج إلى كميات كبيرة من الأدرينالين، وإلى رهبة الموقف والشعور بأنك المجرم الوحيد في هذا العالم، ولم يعد الذهول ينتابني حينما أشعر بالرصاصة تندفع بقوة نحو هدفها، أو أحس بأن كل شيء يتلاشى من حولي، انتهى أمري، فلقد أصبحت مجرما.. مجرماً موسمياً.

كانت إحدى ليالينا ضحيتها امرأة، أتذكرها وهي تمشي بخطوات

متعبة وبعجل يخفيه تقدمها في السن، بقدميها القصيرتين، وحذاء جلدي يملأه المطر، ترتجف رغم الفراء الذي ترتديه، وتبدو خائفة حتى من المطر الذي يتناثر من فوق مظلتها الكبيرة السوداء، كانت تسير في زقاق عريض بلا مصابيح، وقفتُ في نهايته وعندما رأيتها تدخله بدأت أمشي نحوها بخطوات واثقة ومتمهلة، واضعاً يدي في جيبي بنطالي، ورأسي متجه للأسفل، أرتدي معطف دافئ، بدا بلون تلك الليلة السوداء، مع قبعة مدورة عريضة تخفي نصف وجهي العلوي، اقتربت منها أكثر، شممت بها رائحة ورد الجوري، بالإضافة لرائحة ثيابها الرطبة، كما سمعتها تغني بهدوء وبشفتين مرتبكتين، فهي تشعر بالوحدة وتحاول أن تقضي طريقها الطويل بأية وسيلة لتبعد المخاوف عن رأسها، كانت أغنيتها كتهويدة أم فوق رأس طفلها الذي تسعى في تنويمه:

أمهلني طريق الوصول

بضعة دقائق

وأمنية اللقاء

توقفت عن الغناء فجأة دون أن تنهي أغنيتها الأخيرة، ورفعت رأسها، موسعة عينيها بنظرة ذهول مستقيمة، وقد لمحت تلك النظرة بعد أن صرت بجانبها، ثم أفلتت مظلتها و هوت للأرض خلال ثانية،

وكان واقفاً خلفها على بعد مترٍ واحدٍ صديقي، ماسكاً مسدسه، ولا يـزال مصوباً وهو ينفث الدخان، وبعد استقرارها فوق دائـرة دمـاء سـرعان مـا بدأت تنجرف مع الأمطار، أنحنى القاتـل علـى جثتهـا البـاردة خافـضاً رأسه في حالة خشوع وردد مغمض العينين: "تقبلها يـا إلهـي الـرحيم، كإحدى ضحاياك الكثيرة، فهي بحاجة لرحمتك"، ثم رفع رأسه ملتفتـاً لي وقال: "لم يعد بوسعها أن تسير أكثر، كانت ستسقط على أية حال".

قضينا ليلتنا تلك مختبـئين في غرفـة كمـا بقيـة سـكان هـذه المدينـة البائسة، نفسها الغرفة التي سجلنا فيهـا أغلـب ذكريـات أيامنـا، وكنـا نقضم الليل بأحاديث ثملة، ولم نك ثملين، أنا أتحاشى الشرب وصـديقي يقظ دائماً، ومرهق دائماً و غير قادر على النوم منذ أن التقيتـه، قـال لـي تلك الليلة: "عندما عشت في ذلك المحجر، أو سمه ما شئت، ظننت أني سأموت فيه، كان ذلك المكـان يجردنـي مـن الـشعور والإحـساس، حتـى أمسيت محض فراغ، ولكن تلك الستارة ألهمتني شـيئاً، وهـو أن هنالـك أمور لا نراها، في الحقيقة لم أكن أفكر بالهرب، كل التفكير كان منـصباً على رؤية أشياء جديدة لقتل التعاسة التي تنمو داخلـي، ولكـن تـبين أن تلك التعاسة لا يوجد مـا يقتلـها، بـل تبقـى تكـبر مـع الأيـام، وعنـدما هربت، وسقطت في النهر لم أكـن أعـرف شـيئاً عـن الحيـاة في الخـارج، أنقذني شخص لا أعرفه، أتذكر أني كنت مستلقٍ على سرير وسط غرفة،

لا أرى بوضوح ولا أسمع بوضوح، فقط همهمات و وجوه كأنها مغطاة بالضباب، جسدي كله يؤلمني وأشعر بسخونة بالغة، أطلق أنات باستمرار، ربما صحوت في عصرية واحدة ولساعة واحدة، سمحت لي ان اسمع بوضوح، سمعت أحاديث نساء وهدير مكائن خياطة، بالإضافة لضحكات أطفال ناعمة وبريئة، تعذبت وأنا أنصت لها، ونمت على أثرها أعمق نوم، رأيت نفسي اسقط من على سريري واهوي في ظلام لا متناهي وصمت بالغ بحيث تسمع حتى أصوات الذكريات التي تكوّن تلك الروح العتيقة المنزوية، بالإضافة لأصوات قطرات الدم وهي تتدفق ببطء كبطء هبوط جثتي النائمة، دون شعور، واستمررت بالسقوط، حتى فتحت عيني، ووجدتني مدفوناً تحت الأرض، داخل قبر ضيق وبارد"

قلت بسخرية، وبصوت ناعس، وأنا مستلقٍ على أريكة: "يا لك من شبح، أنا أشك أنك لست بشرياً منذ ولادتك"

كان جالساً على كرسي هزاز، ويده قد تعافت ورفع الجبس عنها، يتأرجح تارة ويتكئ بكرسيه على الجدار خلفه تارة أخرى: " قمر رمادي منتفخ، يدفن الأفق نصفه، تاركاً نصفه الآخر يطل على المقبرة، الليل كثيف الظلمة والنجوم قليلة متباعدة، ورجل ينفض التراب الرطب من على جسده العاري بعد أن رفضه الموت وأخره ، ضائعاً بين شواهد القبور المكفهرة التي تحرسها الغربان والتي لا ترى لها بداية أو نهاية،

وضعت يدي على قلبي المرتعب، تحسست دقاته التي تهز معها كل جثتي المنتصبة خوفاً، وعرفت بأنها تدل على الحياة، لكن هل هذا يعني أني لست ميتاً، فأنا لا أدري متى يكون المرء ميتاً، وحدتي ووحشتي وجثة قمر مرهق كئيب، يحتضر، ظلال القبور، عواء بعيد، يا له من نداء وحيد تشربه آذان الراقدين هنا، وأنا هائم في غربتي أتحرك بألم وتثاقل، متعثراً بمعاول حفر منسية، أو أسقط على قبرٍ غاط بالسكون، محاولاً الخروج قدر استطاعة قدمي العاريتين المتجمدتين"

كنت منصتاً، رغم نعاسي، وعلقت: "الرجل الهارب من القبر"

– بل الرجل الهارب من المحجر.

– هل تود زيارته؟

– المحجر؟ لا، إنه أكبر خرابة في ماضي، ولكني الآن معذب أكثر، الموت يستأصلني ويرفضني، أعيش بدون عزاء، أما سابقاً فعزائي كل الأشخاص الكثر الذين يعانون مثلي، معاناة لا نعرف طعمها، ولكن أقلها كنت أنام، أنام بسلام، وأعرف ما سيحصل لي، وأعرف أني سأموت بسهولة كما يموت رفاقنا في ذلك المكان.

– كلنا ضحايا قراراتنا التي صممنا على أتباعها.. ولكن ما أدرانا لعلها هكذا أفضل..

توقف الرجل العجوز عن الكلام ثم أضاف: "أو لعلها بسبب التقدم

في العمر، وربما ليس لأماكننا دخل في ذلك... أنا لا أعرف شيئاً"

قلت مواسياً كآبته: "ربما لو أنك في المحجر حالياً، لكنت أتعس مما أنت الآن"

– هنالك.. كنت لا شيء، والآن شخص مجهول.. وربما الآن أنا أسوأ مما كنت في المحجر.

– دائماً عندما نغادر الأشياء نكون قد غادرنا أوجاعها أيضاً، إنه تصميم عقولنا الذي يتذكر الآلام السابقة على أنها ذكريات دافئة.

قبل أن نقتل تلك المرأة، في عصر ليلتها، قضينا ساعة عند بائع نقيع الزهور، الذي غير مشروباته لقسوة البرد، وأبدلها بالقهوة والشاي، إلا إنه أبقى على بعض مشروبات الورود الطبيعية التي يطلبها الناس على مدار العام، ولكن بشكل أقل مما هي عليه في الأوقات الساخنة، كان يضع غلاية تحت نار هادئة تنثر بخار القهوة وتنضح برائحتها الدافئة التي تسامر مشاعرنا وتهدئها كأنها تهويدة، كنت كما المستلقي على تلك الرائحة وعيناي ثابتتان بتأمل على الشارع أمامنا، تمر عربات حمل كبيرة بعجلتين تجرجرهما ببطء يدفعها صبي، أو صبيان، تترك خلفها صوت صرير مشحون بالتعب، أو دراجات هوائية، وأخرى نارية تمرق في عجل أمام باب الدكان الواسع وتختفي إثر ضخة صوت لا تدوم لأكثر من ثانيتين.

وقبل ذلك العصر بيوم ممطر، في وقت الظهيرة، كنت جالساً لمفردي في مطعم، باحثاً عن فريسة لنصطادها في الليل، أرتدي ملابساً أدخرها لمثل هذه المهام لتغطية فقري، سترة حمراء غامقة اللون، وبنطلون أزرق، مع قبعتي بالتأكيد، أحمل معي جريدة، وليس على طاولتي شيء، فجيبي فارغ، وعندما جاءني النادل يسألني ماذا أطلب، أخبرته بأني أنتظر صديق، سأطلب ريثما يأتي. كنت أقصد مكان الاصطياد مرة واحدة، حتى وإن كثرت الفرائس، فالطمع يتناقض مع قوانينا الصارمة، بالإضافة لذلك فأنا شخص غير معدود في مدينتي وليس لدي أصدقاء، باستثناء صديق واحد، أثق به وأجده كل ما احتجته، خلفي طاولة يجتمع حولها امرأتين، كما خمنت من أصواتهن التي أنصت لها، فلم أكن أقرأ بتلك الجريدة، بل أخفي نظري فيها لا أكثر، النساء متفاوتات في أعمارهن، إحداهن كأنها في الثلاثين، ولكن الأخرى صوتها يذكرني بصوت جدتي، إذ كانت تتنفس أكثر مما تتكلم، ترتشف شراب ما بين كل جملة، تسعل أحياناً، صوتها واطئ ولكني أسمعه، قالت لها الفتاة: "هل بدأ سعالك يتحسن؟"

– إنه أفضل من الأمس، انقطع الدم وأصبح سعال جاف، لكنه في بعض الليالي لا يكاد ينقطع..

– لأنك لا تستمري على العلاج.

– أنساه أحياناً، وأتناساه أحياناً أخرى، قهقهت قهقهة ضعيفة مستعينة بكل قواها ثم سعلت لنصف دقيقة تقريباً، فأحسست بارتباك الفتاة التي أشربتها بعض الماء، خف سعالها وعادت تقول: "لا يهم سعالي، فأنا ميئوس مني، أهم ما لدي ولدي الصغير.."

قاطعتها الفتاة مازحة: "وهل لديك ولد أكبر منه"

– إنه وحيدي وصغيري، لكنه الآن مقعد، زوجته ولدت ليلة أمس، وأنا وحيدة في البيت، قررت زيارته الليلة، وأن أحمل معي ما جنيته طيلة حياتي فهو بحاجة للمال أكثر من أمه.. وعلي العودة في الليلة ذاتها، فزوجي المريض يحتاجني أكثر من مرة في الساعة الواحدة.. إنه مريض جداً ويتبرز كثيراً.

قالت الفتاة وشككت أنها امرأة قانون: "الليلة؟.. الليلة لدي عمل لا أقدر على تأجيله.. لتكن ليلة الغد؟"

– حسناً لتكن ليلة الغد.. تعرفين عنوان ابني؟

– أظنني نسيته.

– حسناً، سجليه عندك، وأعطتها عنوان بيت وحيدها.

في صبيحة اليوم ذاته، دخل الغرفة الرجل العجوز حاملاً معه علبتي سجائر وضعهما على الرف، مع جريدة مطوية، وقنينة زجاجية مليئة بحبات القهوة وضعها داخل الخزنة الصغيرة المعلقة على الجدار

المقابل للأريكة البالية التي أستلقي عليها، ثم أخرج بيضتين من جيبه، دحرجهما على الطاولة الكبيرة، وهو يقول: "اضطررت اليوم للتسول، ولكن غداً لن نضطر لذلك"

قلت وأنا لا أزال مستلقٍ، منصتاً بحسرة لصوت وقوع البيضتين على الأرض: " ولكن لم غضبت على البيضتين، وهن كل ما لدينا"

– لم أغضب، لقد اكتشفت أنهن فاسدتان، أعطتني إياهما امرأة، أرادت أن ترميهما من بضاعتها ولكنها رأت متسول فتصدقت بهما.

– حسناً، ماذا قلت عن الغد؟

جلس على كرسيه، أسند رأسه، مدخناً سيجارة، وبدأ يشرح: "نفسها تلك بائعة البيض، جلست لوقت قليل بالقرب منها، فالناس يمرون عليها كثيراً، ولابد أن يكون فيهم من يعطف على حثالة مثلي، رافعاً يده ومطأطأ رأسه، مردد كلمات توسل غير مفهومة، وفي الوقت نفسه، ملتقطاً للحوارات الكثيرة التي تدور بين بائعة البيض الثرثارة والناس المشترين منها، وعندما تفرغ من الناس تلفت لي وتكلمني، غير أني لا أرد عليها وأتصنع عدم الاستماع لها، لكنها تستمر بالتكلم عن أولادها، بيتها، عملها المتعب، وعن دجاجاتها، وتتكلم عن زوجها، تقول أنه يثمل دائماً ويضربها كثيراً، لم أهتم لها، أو أبادلها الكلام، تركتها تثرثر، حتى جاءت متبضعة، عجوز، أتضح أنهن صديقات،

للترحيب الحار بينهن، ولأن الأخرى جلست قليلاً قبل أن تشتري، لترتاح أو لتتكلم، ومن خلال حديثهن الممل والطويل انتقيت بعض العبارات المفيدة، وهو أن تلك العجوز، لديها ثروة، وتريد إعطائها لأبنها الوحيد، وستذهب بمفردها سراً في الليل بعد أن تنيم زوجها المجنون، ولكن قبل ذلك ستجتمع اليوم مع امرأة ستساعدها في ذلك، سيجتمعان ظهر اليوم، في مطعم المدينة.. التفت إلي وقال: "ومهمتك أن تذهب اليوم لذلك المطعم، – ثم أرجع رأسه لحالته الأولى وأكمل– علينا أن نجني معلومات أكثر لأجل سلامة مهمتنا".

أما عن حديثنا في ليلة قتل تلك العجوز، فقد تكلمنا عنها حين اجتمعنا في غرفتنا الآمنة، أو بالأحرى أخبرني كيف استعد لها وكيف قتلها: "ترقبتها برغبة، رغبة الحصول على الأموال ورغبة القتل التي لا أعرف كيف ابتليت بها، إنها رغبة إشباع الألم المتشبث بأعماقي، اختبأت بجانب سلة نفايات مصنوعة من الفولاذ ومعلقة بين عمودين متآكلين، لكن في الحقيقة ما خبأني هو الظلام وليس شيء آخر، سمعت طقطقات قدميها، وأظنها كانت تردد كلمات مثلومة وغير واضحة، إلا اني انصت فقط لقدميها وهما تتحركان بصعوبة، بسبب برودة المكان أو ظلمته، انتظرتها لتقترب أكثر، لأني لست مستعداً لأطلاق رصاصتين، كما إن الرصاصة الخائبة تعود علينا بأمور لم نحتسبها، ليس لأني

فقدت خبرتي في القنص، ولكن صعب علي تحديد مكان للموت المباشر وقتها، بيد أني صمدت قاطعاً نفسي، وثابتاً كالظل، لا أظنها رأتني او التفت إلي حتى، كانت لها مهمتها أيضاً، مهمتها الفاشلة، أقسم بأني قتلتها بحركة واحدة، بسرعة لا تسمح لها بالالتفات للخلف، وعندما أطلقت الرصاصة، كان المسدس ملتصقاً بعنقها الهزيل.

حين سقطت أسرع ليفتشها باحثاً عن المال الذي تحمله، والذي سندخر منه قسماً كبيراً للصيف، لكن هنا كانت الصدمة، العجوز لا تحمل غير أوراق لا نفهمها، ليس في جيبها مال، رفع رأسه ليقول لي بعد أن رأيته لم يجد ما أردناه: "لم يعد بوسعها أن تسير أكثر، كانت ستسقط على أية حال".

ثم أعاد الأوراق لمكانها، وعندما عدنا ندم لأنه لم يأخذ الأوراق بعد أن تلوثت ببصمات يده، وفي تلك الليلة، كان قد ابتدئ حديثنا بجملة منه، قالها باعتراف: "لقد ارتكبنا خطئاً فادحاً".

3

"عودة موسم الجرائم الشتائية مجدداً" كان هذا العنوان يتصدر أول صفحة للجريدة التي أحضرها معه العجوز، كثيراً ما نقرأ عنا في الجرائد، لا شك أننا محل اهتمام اغلب القراء، ولا شك أيضاً أننا شخصان مشهوران بالخفاء، لا أحد بوسعه رؤيتنا لكن على الجميع خشيتنا، والحذر منا، هذا ما يفهموه تجاهنا وليس ما نقصده.

من طرائف قضيتنا التي تتناقلها الصحف، أن الحكومة في نهاية كل شتاء، تعلن عن إلقاءها القبض على المجرمين، وتنفذ بهم حكم الإعدام شنقاً حتى الموت أمام كاميرات الإعلام، وأحيانا تعلن القبض عليهم دون أن تعدمهم.

رميت الجريدة من يدي، بعد ان كنت جالساً على كرسي وأقرأ بينما العجوز واقف قبالة الشباك يدخن سيجارة، كنت قد رميتها أول ما قرأت العنوان بعد أن علق الرجل بصوت بارد: "هراء... مللنا هذا الهراء المستمر"

– أنهم لا يعرفون عنا شيء، يقولون ما يحلو لهم.

ثم قال لي وأنا لا أرى غير ظهره العريض الذي تسقط عليه أشعة

خفيفة لشمس متوشحة بالغيوم البيضاء: "اقرأ لنا الأغنية المكتوبة في آخر صفحة، أظنها ملائمة لهذا الصباح"

تناولت الجريدة من الأرض، وقرأت:

دعينا نركض خلف الخراف الصغيرة

نتيه معها بين سنابل القمح الناضجة

نقبل بعضنا

نغرق في أشعة الشمس وفي أحلامنا

نرقص مع الرياح كسنبلتين

وننسى.. كل شيء

تأملت قليلاً عندما أنهيت الأغنية وقلت: "إنها تذكرني بحكايات جدتي".

في آخر زيارة للمحامي المجهد نفسه في كشف الحقائق الغامضة، لم يدم حديثنا طويلاً، في البداية قدم المحامي شرحاً عن ما استطاع أن يصل إليه حول السجون أو المصحات المجهولة، تكلم عن قصص قرأها وكان يضنها مجرد خيال عن أماكن تشبه المكان الموجود في تسجيلاتنا، لكنه الآن بات يبحث في تلك القصص عن المكان الذي يطابق ذلك المحجر أو السجن، يقول بأن ذاكرته لا تسعفه كثيراً، إذ افتقد اسم القصة التي قرأها قبل تعرفه علينا، وكانت تصف المكان نفسه تقريباً، وكأن الكاتب

هو أحد سكان المكان تحديداً، هذا إن لم يكن محض صدفة، ادت لتصادم فكرة صنعها الكاتب من خياله مع بناية واقعية.

ثم أنه تكلم حول الشيء الأهم، وهو أنه ما أن يصل إلى دليل مقنع حتى يتمكن من طرح القضية على الحكومة للبحث عن الأماكن المجهولة، والأناس الضائعين بسبب الحروب غالباً، ليحول قضيته من مقالات صحف يقرأها الناس للمتعة، إلى قضية حقيقية قد تجد صداها بين أوساط الناس، قد يظهر أشخاصاً آخرين مثل السيد العجوز يعرفون حقائق عن أماكن مثل تلك، وبالتالي وجود أكثر من مكان واحد، أيضاً أهل أولئك المفقودين ربما سيظهرون بعد سماعهم للأمل الذي ما كاد يستقر داخلهم، وقد تستفيق تلك المدينة التي نخرتها الحرب بعد ما ظنت أن كل شيء انتهى بانتهاء الحرب، وأن طرق عودة المفقودين مقطوعة، حقائق كثيرة مختزنة داخل هذه القضية ستزول قشورها ما إن تجد قضيتنا صداها.

أنهى المحامي كلامه: الخوف أن يكون أولئك الرجال بضائع، للمتاجرة بهم، أو قل بأعضائهم، أو هناك فكرة غريبة تدور في رأسي، وهي أن من عادوا من الحرب بغير صحتهم المعهودة، أي عادوا وهم مجانين، أنشأت لهم الحكومة مكاناً لجمعهم فيه..

قاطعه العجوز وكأنه مدرك لعبارته، أو كأنه يعيش أجوائها: أو

أنهم لم يطالب أحد بهم.

لم تنتهي تلك الزيارة بخير لأن الرجل العجوز أخفى غضباً كبيراً داخله بفقره وتعبه الذي يغطي مظهره، إذ قبل أن نخرج تكلم المحامي بعبارات مقتضبه، حول أمر يبدو مهماً جداً بالنسبة له، إذ أشار السيد المحامي لشيء يريد التأكد منه من خلال نبرة صوت العجوز وعينيه اللتين ظن أنهما ستخبرانه الحقيقة التي طمع بها، ولكنه فشل في محاولاته أمام العجوز وأدرك أنه قد يكون على خطأ، وأنها مجرد فكرة غبية توسوس داخل رأسه، إلا أنه بقي مصراً على التأكد منها ولو بطرق أخرى، وكان قد افتتح كلامه الخطير ذلك حين قال: هل دائماً ما تستخدمان مسدس؟ بالنسبة لي صعقت مباشرة أما العجوز فلا أحد يقدر على تغيير ملامحه المتصلبة، وكانت جملة مفاجئة وعلى غير العادة، رد العجوز بدون اكتراث: لم أفهم قصدك؟

– أثناء إنصاتي لأحد التسجيلات، سمعت صوت سلاح يسحب، ولا شك أنه صوت مسدس! هل تستخدمان مسدس؟

لم يتكلم العجوز، إذ بقي على حاله جالساً، مسنداً ظهره رافعاً رأسه كأنه يتأمل في سقف المكتب، قلت بعد أن وقعت عيني المحامي عليّ:

– ما علاقتنا بالأسلحة، هل يوجد تاجر أسلحة بحال مثل حالنا؟

– لا لا، لا أقصد المتاجرة، فقط كنت أسئل، لأني أعرف أن الأسلحة

ممنوعة وحتماً أنكما تتحاشيان المنوعات.

قال العجوز وهو ينهض من مقعده، أثناء خروجه دون توديع: "لا.. نحن لا نتحاشى المنوعات".

4

عندما بدأت أستمع للتسجيلات العشرة، بدأت وقتها بإلغاء مواعيدي بالتدريج، ثم تركت الكتب التي اعتدت قراءتها جانباً باستثناء ما احتاجه لغرض ربط الأحداث، بعدها كثر تغيبي عن الدوام، بقائي في المكتب بات أكثر من المعتاد، أوصد الباب معلناً إغلاق المكتب، أتأخر عن الرجوع للبيت، ثم أعود ناسياً ما أوصتني به زوجتي العصبية، وأخلد للنوم دون أن أطمئن على طفلتي العمياء، أفكر كثيراً وأنا مستلقٍ على الفراش غير منتبه لإغراءات زوجتي التي تقضي الليل تشخر بعد أن تمل من الجمل المعتادة التي تلقيها علي دون أن أنتبه لها، أنام لساعتين أو لا أنام، لأصحو قبل الشروق عائداً للمكتب، هذه خلاصة الفترة التي قضيتها وأنا أنصت للتسجيلات التي أدركت أنها ستمنحني أفضل قضية، لن يحصل عليها أفضل محامي في العالم على مر الزمن، تارة أفكر بأنها ستكسبني أموالاً طائلة، وغالباً ما أفكر بأني سأنقذ الكثير من المفقودين الذين لا يوجد بيت في مدينتنا ليس له صلة بهم، لا أدري كم هي الأيام التي قضيتها بحثاً عن أولئك المفقودين، الذين لا ينتظرون أحد ولا ينتظرهم أحد، يعيشون هذه الحقيقة المرة متناوبين

الموت فيما بينهم.

السيدة العجوز لم تكن قاتلة، توصلت لهذه النتيجة في بدايات التحري في قضية التسجيلات، كان حفيدها مخطئاً حين خالها قاتلة، بل ارتكب خطئاً فادحاً عندما حسبها امرأة ملعونة، مستدلاً بالتمائم المعلقة في زوايا الفندق، إذ تيقن أنه سيكون مجرماً في يومٍ ما، لأنه من صلب الخطيئة، وهذا ما لم يشر له بوضوح، أثناء التسجيل، أو أنا خمنته بالتحديد، إنها ليست أكثر من عجوز يسير الدم في جسدها بقلق، متدفقاً بعصبية بالغة، بل أنها رءوم في نفس الوقت ليس لأنها اعتنت بطفل ليس له والدان، بل لأنها الوحيدة التي تكفلت بمهمة أهملها الجميع، وهي نفسها التي فهمها حفيدها بشكل خاطئ.

فارق السيد فندقه، وهجره الزبائن أيضاً، لأن السيدة أهملته وتركته يتساقط يوماً بعد يوم، أكثر من ذلك أنها حولته إلى مقبرة للغرباء، في أيام مدينتنا التعيسة عندما الناس يموتون بالشوارع بشكل يومي، بسبب عمليات القتل المجهولة، أو عمليات الثأر والانتقام، أو أثناء مطاردة عصابة لشخص ما، تلك الجثث تبقى ممددة على الأسفلت، أو في الأزقة، على الطرقات الخارجية، قرب الأنهار الآسنة.. الحكومة لا تتدخل أو قل الحكومة محظورة، الناس يخافون، إذن من بقي ليعتني بتلك البقايا، حصلت على أكثر من شاهد أنهم شاهدوا عجوز متعبة كانت تجر تلك الجثث، بواسطة حبل تربطه على قدمي الميت وتسحبه طوال

نصف يوم أمام أعين خائفة تراقبها بذهول، من خلف الجرائد، أو من وراء نوافذ المقاهي والدكاكين، أو على شرفات البيوت، الكل يراقبها بصمت خائف، أغلب وقتها تجلس لترتاح، ثم تكمل العمل، بغير اكتراث، تأخذهم لتضعهم في غرف فندقها، تريحهم على الأسرة العريضة المفروشة بفرش ثمينة، دمرتها الرطوبة والقذارة التي تتراكم عليها بتراكم الأيام، بعد ذلك تعلق على باب الغرفة بعد إغلاقه قطعة خشبية تحفر عليها كلمات توديع، وتضع قبالة الباب مبخرة ليست لطرد الرائحة العفنة، بل لتنام تلك الروح الغريبة بسلام ودون معاناة.

تلك المهمة كانت عزائها لأيام صباها، فعيناها ملئا بجثث متناثرة ولازالت تخزن الكثير من الصور حول تلك المشاهد التي رسمتها الصواريخ والطائرات، ربما كانت مهمتها هذه تساعدها على مواساة ذكرياتها، أو المقدرة على تذكرها بحرقة أخف من السابق، أو أن سكان غرفها يقللون وحشة الفندق، على الأقل أنهم يملئونه، إنها لا تريد أن تفكر بأن تراه فارغاً في يوماً ما، أو لا يقصده أحد، وهكذا يكون أكثر أمناً، لن يسرقه اللصوص، ولن يعبث به الأطفال، فهو لا يزال فندق ولكن لم يعد ينبض بالحياة كما السابق.

الزلة التي وقعت بها، دون انتباه في بادئ الأمر، أني تركت القضية الأهم، قضية المفقودين، إذ جرتني تلك الغرف إلى أمور بدأت تتسلسل تباعاً حتى صنعت لي فكرة جعلتني أميل لقضية أخرى، كان عليّ

تأجيلها بعد القضية الأولى لو كنت مدركاً للأمر بما فيه الكفاية، ربما استهواني الحماس المتدفق في داخلي، بسبب التسابق بين المحللين والمتحرين، ووسائل الإعلام، ومقالات وكتب وندوات، وكل وسيلة ممكنة لكشف تلك العمليات المجهولة التي امتصت رذاذ الأمن الذي تتغذى عليه مدينتنا، مدينة الظلال.

بالتأكيد أن الرجل العجوز دخل الفندق بالطريقة ذاتها، ولا شك أنه سحب عارياً لفترة كافية لسلخ ظهره على الأسفلت، بعد أن وجدته العجوز مرمياً على حافة المدينة، لا أخفي أني راودتني الشكوك حول حكاياته وظننته يتكلم بما يملي عليه خياله حين وصلت للمقبرة التي أودع فيها، لكن بعد تتابع الأحداث تبين لي أن كل ما قالاه حقيقة لا غبار عليها، وبدأت الأفكار تتعانق عندما اكتشفت أنه لم يمت بعد، ربما إنه يقطع أنفاسه لفترة طويلة، وأيضاً لا يشعر بالألم! استيقظ وسط بقعة دماء فوق سريره الذي لا يعرف كيف وصل له، لم تكن عليه قطعة قماش تستره، جسده مغلف بالدم والغبار، تلتصق بظهره قطع حجر صغيرة مع بقايا زجاج جرفهن معه أثناء جرجرته، أزاحهن بإحدى يديه متألماً عندما أتكأ على واجهة السرير بصعوبة، وجد في جسده عجزاً كاملاً، لا يمكنه النهوض أو حتى تحريك قدميه المستمرتين بنزف هادئ. الغرفة واسعة، ومظلمة رغم أن القمر بدأ يرتفع، وباستثناء الأضواء المتوارية التي تستنشقها النافذة المربعة التي لا يتجاوز عرضها

المترين، ليست عليها ستارة، فقط زجاج بعضه ساقط، والآخر سيسقط حتماً، مما جعلها عرضة لكل تيارات الهواء الغاضبة، أو المداعبة، أيضاً لها نصيب جيد أيام السموم، وأيام الأمطار، فجدرانها ترسم علامات لآثر المواسم الراحلة، وكذلك السرير، لا يوجد فيها شيء آخر غير السرير الكئيب، إنه يفتقد لياليه الجميلة، عندما كان العشاق يتعاشرون فوقه، كل ليلة وهو يحتضن اثنين طافيان عليه، يلامس أجسامهم الناعمة، و يتدفأ بأنفاسهم اللاهثة، العذبة، فهو له حصته من المتعة العابرة، لكن كل ذلك انتهى، حكمت عليه العجوز بأن يصير مستنقع مظلم يؤوي وحشاً خشن الجلد ويزفر ألماً ثقيلاً.

استعصيت قدماه عن الحركة في بادئ الأمر، لكنه أرغمهما على حمله، تحرك ببطء، حاملاً جثته مبتعداً قليلاً عن السرير، جسده الدامي، لا يوحي بآدميته، بقامته الضخمة الطويلة، وعيناه اللامعتان بوداعة رغم بشاعته، صدره المنتفض، ومؤخرته المتصلبة، كقطعتي حجر صلب، أظافره الطويلة، ينابيع الدماء الصغيرة في مختلف مناطق جسمه العاري، تجول داخل الغرفة متلمساً بيده اليمنى التي تتقدمه كدليل لخطواته المتعبة مجرجراً قدميه العنيدتين، لا يدري ماذا يريد، فهو يتحرك بفكرة طفل اكتشف لتوه قدرته على الحركة، كان يقطع الظلام جيئة وذهاباً، يرتطم بالجدار، يرجع للوراء ووجه للأمام، ليوقفه الجدار مرة أخرى، أو يتلقفه السرير.

بدأ يستعيد وعيه، وحزنه، وكل كآبته المختبئة خلف سذاجته، استعاد حاسة الشم، دخلت أنفه رائحة الدم الساخن، وروائح أخرى تتجول خارج الفندق، تلملمها النوافذ، فتعبي بها الغرف التي تهجرها الحياة الطبيعية، مثل رائحة الأشجار الذابلة، المركونة في الطرقات، تهجرها الطيور، كما ان بعضها مجرد جذوع، والأخرى في ايامها الأخيرة، فليس في هذه المدينة من بوسعه الاعتناء بشجرة لا يدري كيف أتت إلى مكانها، أضف إلى رائحة الأسماك المعلقة بحبال تشكل نصف دائرة صغيرة متروكة فوق سطوح المنازل، ربما نسيت أو ربما الوقت غير ملائم لطيها فهي لا تطهى إلا عندما يجتمع كل أفراد العائلة بيوم سعيد، و يا له من يوم مفقود، تخالج تلك الرائحتان رائحة البصل الذي دب فيه العفن، تأتي من السوق، لا يبعد كثيراً عن الفندق، يترك البصل على شكل كومة بحافة الشارع الذي يخترق السوق المعطل غالباً والمغلقة أغلب دكاكينه، يغطيها البائع المرهق أثناء عودته لمنزله مساءاً، وقد تمنعه الأزمات الأمنية من العودة اليها إلا بعد عدة أيام حيث يجد بضاعته ذبلت وفسدت، فتهرب رائحته من بين ثقوب الغطاء، لتشق طريقها لأنف العجوز الذي كأنه ثقبين في الظلام، كل تلك الروائح تداعب ذكرياته، تعيد له ساعات وأيام، إنه تعيس بقدر استمتاعه بالروائح التي يعدها الآخرون كريهة، كان كالحالم المرهف وهو يستنشقها مغمض العينين، يحرك رأسه بحنو، غير منتبه لجروحه

الكثيرة.

أقترب للنافذة، بعد ساعتين قضاهما في الغرفة وهو جاهل أمره، أحنى يديه على عتبتها الخشبية، وراح يتطلع للقمر بقلب عاشق حزين، فالقمر إله العشاق، ذلك الإله الذي يرقد في عيون البائسين المحملقة للسماء، تلك العيون التي تبرق في عتمة مدينتنا، كعيني عجوزنا الذي يجهل كل شيء عن نفسه، يعيش في حالة اقتراب وابتعاد عن ماضيه، تأتيه الذكريات وتتلاشى في الوقت ذاته.

عندما فتح باب الغرفة كانت القطعة الخشبية التي علقتها العجوز وجدت فرصتها للسقوط، فهي معلقة بشكل ينوي الوقوع في أي لحظة، ثم أنه قضى لياليه الأولى يتجول في الفندق، ولو رأته العجوز لتجمد قلبها على الفور، بهيأته المخيفة، وطوله الذي يعادل ضعفيها، فأتقن دور شبح الفندق بغير قصد منه، يصعد السلالم وينزل، يمرق من أمام الغرف، يتجول في الفناء، يتغوط في أي مكان يحلو له، يتشاكس مع القطط حتى ينتهي الأمر بأن يقضي عليها، بعد أن ينبت أنيابه بجسدها، يطرق على الأبواب الموصدة، يفتح النوافذ ويغلقها، وفي منتصف الليل يطلق بعض الصرخات المنتحبة حين يشعر بالرغبة في ذلك.

في إحدى الليالي، بعد أن توقف النزف في جسده، ما عدا معصمه الأيسر، كان فيه شق عميق، أراد أن يعالجه بطريقته لكنه اكتشف بأنه

ليس جريئاً بما يكفي، وأمامه الكثير من الأمور التي ليس بوسعه فعلها، إذ قرر قطع يده، أحضر سكيناً من مطبخ العجوز، جلس على الأرض واضعاً يده على السرير، هم بقطعها، قرب السكين ليده لكن أوقفه عجزه، فرمى السكين مباشرة من النافذة وأطلق صرخة محملة بحرارة جوفه، دارت في الفندق حتى استحالت إلى صمت مطبق خيم على الفندق طوال الليل، أما هو فقضى تلك الليلة جالس القرفصاء على السرير باكياً كالأطفال، لأنه أكتشف جبنه.

اكتشف مخارج الفندق، كالنوافذ والأبواب الخلفية الصغيرة المغلقة، أو الباب الكبير الذي تغلقه العجوز أحياناً وتنساه مفتوحاً أحياناً أخر، فكان يخرج ليلاً قاطعاً الشوارع الفارغة للمدينة الغارقة بظلام الشتاء الموحش و يعود للفندق قبل أن يلفظ الليل أنفاسه الأخيرة، وهكذا أعتاد الخروج كل ليلة، يسحق الأرض بقدميه الحافيتين، ويخترق موجات البرد بجسده العاري، دون أن يرتجف، في بادئ الأمر كان يختبئ إن رأى أحد غيره يمشي بالشارع بعجلة الخوف الليلية المعروفة، لكنه فيما بعد، وبعد أن ألف الوجوه المسائية، قرر أن يتبع أحدهم، وكان رجل خمسيني، سار خلفه ببطء، بخطوات متمهلة، ولكن حينما ألتفت الآخر للخلف ليصطدم بعينين كبيرتين، وجثة رجل ميت، أسرع خطواته المرتبكة حتى بدت كأنها في حالة ركض، ثم أخذ يعدو مدفوعاً بخفقان قلبه الشديد، أستمر عجوزنا بالسير ورغبته الوحيدة هي معرفة

اين يـذهب هـؤلاء النـاس، لا يقـصد أذيـتهم، فقـط مـراقبتهم، الرجـل الخمسيني انتهى أمره منذ أول إلتفاتـة، لـذلك فجريانـه لم يطـل حتـى أنتهى به الأمر واصطدم بالأرض الصلبة بعد أن أعاقـه معطفـه وحـذاءه، توقف العجوز على جثته، نظر إليه رآه مغمياً عليـه، أو حـسبه ميتـاً، تجاوزه بخطوتين، لكنـه رجـع ليأخـذ المعطـف ويغطـي بـه عريـه دون اهتمامه للسعات البرد.

توالت الصباحات الضبابية منذرة، إذ كانت تأتي بجثث جامـدة، في أيام متفرقة، أولها جثة الرجل الذي انتزع معطفه فقط، لحسن حظـه لم يكن ميتاً، لكن سوء الحظ لم يبتعد عنه كثيراً، قضى بضعة أيام يرقـد في المستـشفى، وأسـبوعاً تحـت التحقيـق القاسـي، دون أن يـصلوا لنتيجـة توقعوها، لأنه تكلم عن ما يسمى بالـ"طنطل" ولم يذكر أي صفة بـشرية، بعد التحقيق المرهق عاد للمستشفى ليقضي فيها آخر يومين كتبا له.

العجوز، بـدأ يـصقل مهمتـه بتتـابع الليـالي، مـع اسـتعادة صـحته النفسية والجسدية بالتدريج، صار بمقدوره التركيـز بـشكل جيـد، مـع استيعابه لما يراه حوله من أمور الحياة.

بقي متخفياً عن الآخرين، يعيش في الفنـدق دون أن تعـرف العجـوز أنه حي، يخرج ويعود سراً، أغلب خروجـه لـيلاً، وإن خـرج في النهـار وهذا نادراً ما يحصل، يرتدي قبعة ينزلها على وجهـه لحجـب العيـون الفضولية أو الأمنية المتنقلة بين الوجوه الغريبة.

عرف المال وأدرك فقره، وأنه لن يعيش طويلاً على سرقة نصف طعام العجوز، رغم أنها لا تنتبه دائماً لنقصان الأطعمة التي تشتريها، لم يكن يقصد الإساءة إليها، بل يشعر باحترام كبير داخله تجاهها، لأنها أنقذته ولأنها عجوز مهملة.

الليل والقتل، وتلك الدماء الساخنة التي تتناثر على الجدران والأرصفة، الأمطار الغزيرة، والوجوه الخائفة، إنه عالمه الجديد، ومهمته التي كلف نفسه بها، وجعلها باب معيشته ومصدر إرهاقه.

رجل عاش قسط من حياته في مكان تسيره القوانين القسرية، وآخر قضى طفولته حبيس مع عجوز صارمة، لا شك أنهما سيضعان قوانين خاصة بهما، لمجرد قيامهما بأي أمر بسيط، أيضاً، فقيران ليس لديهما مصدر للمال، فقط ذلك المبلغ الدنيء الذي أعطيه إياهما لشراء CD جديد لتسجيل أحداثهما، ليس هذا فقط، اعترافات الجثة الأولى، الرجل الذي سلب معطفه، لقد أخذت اعترافاته من سلة المهملات بعد أن رماها رجل التحقيق، لأجد ما أريد من وصف مقنع، بالإضافة لوقت اندلاع تلك الجرائم الذي قارب وقت مجيء عجوزنا للفندق، وثم من بوسعه استخدام سلاح والمعروف أن الأسلحة غالية الثمن، ولا يستخدمها إلا رجال الأمن، فمرة أعتقل شخص واعتبر إرهابياً بسبب العثور على مسدس في بيته، أثناء ما أبلغ الشرطة عن سرقة منزله.

سألحقكم بأدلة أخرى، حال الانتهاء منها، ولكن ما أريده أن تضعوا هذه القضية في عين الاعتبار، وأن تساندوني على القضية الأهم.

المحامي

كانت تلك الأوراق ملطخة بالدماء، يمسكها الشاب بيده، ويقرأ بصوتٍ باهتٍ حزين. كتبها المحامي مضطراً، بعد أن عاد في الظهيرة لمكتبه، ليجده مبعثراً، بعض الكتب مرمية على الأرض، كرسيه مكسور، والتسجيلات محطمة بالكامل، يستقر حطامها على أرضية المكتب، فهم الأمر من أولى نظراته المذهولة، لقد عرفا أمره قبل أن يتمكن منهما، إنها رسالة خطيرة لا يجب التهاون معها.

قضى مساءه في المكتب، جالساً أمام طاولته على ما تبقى من كرسيه الخشبي، واضعاً رأسه بين يديه، نادماً على التسجيلات التي كانت تمثل أكبر سندٍ له، يملؤه الخذلان، أسف على وقته وأيامه التي صرفها في متابعة هذه القضية، دون أن يلتفت لدهاء الطرف المقابل، أو دون أن يحذر زلة لسان بسيطة نسفت كل تعبه.

لامست ظلمة الليل جدران مكتبه الخارجية، ذهب النهار سريعاً، ورأسه لا يزال غاطاً في بئر يأسه، عاد لبيته، يمشي كمن فقد أعز شيء في حياته ولم يعد كل ما حوله يثير ولو أدنى اهتمام منه، لا يسمع، لا يرى، فقط يمشي، في طريقه المستقيم الذي يؤدي لبيته، لا يجد حاجة

للكلام وهذا ما زاد من غضب زوجته التي استقبلت حالته بعينين تغليان، ويديها على خاصرتيها، لم يرد على أسئلتها، دخل لغرفة النوم مباشرة، واستلقى على السرير، وكانت زوجته قد أنهت أسئلتها بعبارة قالتها بضجر، ألصقتها بظهره أثناء ما دخل غرفته: "كنت مدركة منذ البداية أني تزوجت رجلاً مجنوناً"

مرت عليه صبيحته المغبرة بغبار كدره، وهو جالس في مقهى، لوحده، مع ثلاث كراسٍ فارغة، حول طاولة ليس عليها غير كوب قهوته، بجانب شباك يسمح لعينيه الباردتين بمراقبة الأشخاص، وتأمل حركاتهم الصامتة، ليواسي نفسه نحسة الحظ.

انتهى يومه على مهل، وكان قد قرر العودة لمكتبه، لأمر غير واضح في ذهنه، ربما لإصلاح ما عطل منه، قد ينوي العودة لحياته الطبيعية وهضم قضاياه المرة، وقف على عتبة الباب يرمق الكتب المبعثرة، التسجيلات المحطمة، طال وقوفه، غاصت نظراته في أعماق المكتب، تحركت الشمس، واختفى نصفها، بينما لا تزال قدماه متسمرتان على العتبة، غارقاً في تفكيره دون شعوره بجسده الشاحب.

فاجأته فكرة ما، أحسها بدت تأخذ حيزاً في مخيلته، ساعدته قليلاً في نفض دقائق اليأس العالقة به، هكذا بدا مظهره، وكأن ابتسامة لا تبشر بخير، انفرجت شفتاه قليلاً، وكأن قوة ما سارت في انحاء جسده

وحركت قدميه، تقدم بخطوات متقاربة بطيئة، ثم أنحنى ليلتقط بضعة أوراق متساقطة على الأرض، وأخذ قلمه الأسود من جيب صدره، وضع الأوراق على الطاولة وشرع بالكتابة بعد دقائق استغلها في التفكير، وتذكر ما ينوي كتابته، أعاقته الطاولة، ولم تسمح له بالكتابة عليها، بسبب تلقيها لبضعة ضربات ملأن سطحها بالخدوش والشقوق، لذلك أتجه نحو الجدار مسنداً عليه الأوراق بيده اليسرى، ومستخدماً اليمنى في كتابة قضيته.

بعد فراغه من الكتابة، جمع الأوراق مع بعضها ثم وضعها في جيبه، بعدها أتجه لأحد الرفوف وراح يرمي ما تبقى عليه من كتب، بعصبية لا تليق به، عثر خلف الكتب على مربع صغير محدد في الجدار، دفعه فانزاحت قطعة حديد كاشفة عن مكان سري صغير، مد يده فيه، فأخرج مسدساً أسود اللون، أمسكه بيد توحي بانتقام، ثم جحظت عيناه وقال بنبرة قاتل محترف: "سأنهي الأمر بنفسي".

5

وضع رفيقنا الشاب، تلك الأوراق على طاولة صغيرة أمامه، بعد أن قرأها مرغماً بشفتين توحيان بسوء صحته، وكان يجالسه رجل عابس الوجه، وكأنه لا يعرف الابتسامة، عيناه مظلمتان، واضعاً بفمه سيجارة وينفث الدخان باتجاه مصباح خافت الإضاءة، متدلٍ من قضيب منحني، لا يكاد يضيء الطاولة التي يستقر عليها والتي تفصل بينهما، فكانت الغرفة المربعة الضيقة شبه مظلمة، ومختنقة بدخان سجائره رغم وجود مفرغة هواء صغيرة تعتلي أحد الجدران، تتسلل منها خيوط ضوء رفيعة مجهولة المصدر، لا تكاد أن تمس جدران الغرفة.

سألني محققاً بصوت نابع من مزاج عكر: "هل المحامي محق بما قاله؟"

أجبت معترفاً بصوت مهزوم: "انه يعرف ما يقوله، ما أن تخبره بأول كلمة من الجملة، حتى يكملها بأتم وجه"

قال: "ما الفكرة التي تؤيدها عن جدتك، ما قلته أنت، أم ما ذكره المحامي؟"

– توفيت جدتي، يا سيدي، ولا أظنني أملك الجرأة على اتهامها

بالقتل.

كان الضابط يسجل اعترافاتي بجهاز تسجيل يضعه أمامه، يسجل كل شيء تكلمت به، عني وعن جدتي وعن صديقي، قال: "حسناً، الان أكمل حديثك، ماذا فعلتما حين خرجتما غاضبين من غرفة المحامي بعد شكه بقضيتكما، وإخباره لكما بأمر المسدس؟"

– صديقي أدرك الخطر المقبل، أما أنا فكنت أنتظر تعليقه حول ما حدث، لكنه لم يتكلم طوال الطريق، يمشي وهو يبتلع بغضبه الذي لا يظهر عليه، ولا أدري إن كان يشعر بأنه أرتكب خطئاً بتجهيزه للمسدس أثناء التسجيلات، أم أنه لم يفكر بذلك مطلقاً، فربما هو يبحث عن طرق إصلاح المشكلة، أو أنه سيترك الأمور كما كان مقرر لها أن تحدث، فهو لم يكن مشتت بيوم ما، يمتلك فكرة واحدة، ومقتنع بما سيحصل، و دائماً ما كان يأخذ الأمور بخبرة وتجربة عميقتين، لكن هذا الأمر.. لا أدري، بدا مختلفاً بالنسبة له عن كل ما مضى.

تكلم، عندما حل الليل: "أشعر بالراحة الآن، بعد الانتهاء من التسجيلات، كنت مقيداً وكلما أردت الكلام أتوقف، لأتأكد من أن جهاز التسجيل في وقت استراحته"

قلت له: "أنه شيء جيد، أن تخرج كل ذكرياتك لتقوم بتدميرها"

كان الليل حالك والنجوم مسترخية، رمقتها من شرفة غرفتنا وقلت

معجباً بها: "يا لصفائها.. إنها لا تشعر بشيء"

رد عليّ وهو مستلقٍ على أريكته:

"إنها عيون الإله "

التفت له وقلت مبتسماً:

"مثل عينيك، ساهرة دائماً"

ثم عدت أحملق بالسماء، وقلت بتأمل وانبهار:

"يا له من إلهٍ صبور"

نظرت لصديقي، بدا متجاهل للأمر، حسبته لا يفكر، أو بالأحرى يتخلص من بقايا الأفكار العالقة بذهنه، إنه يطمح لذلك الصفاء البعيد الذي تنعم به السماء، لم أرد إزعاجه، إن أراد سيتكلم، لا أعتقد أنه سيكتفي بما فعلناه، فهو لم يخبرني بعد بخطته التالية، مؤكد أن تكون له خطة أخرى، لا أدري إن كان يبحث عنها الآن، أم فقط أنها تأتيه جاهزة، لا أخفي أن خوف ما يتحرك داخلي، أحسه يقترب لحبل صداقتنا الذي ظفرته أيامنا الحميمة، وعمدناه بدماء ضحايا لياليناً.. لا، لا شيء سيء، أنه قلقي الذي يستبق الأحداث، وحزني المزمن، انكسار عيني وبطء ابتسامتي.

قال لي:

"هناك شيء، أراك بعيداً عنه؟"

– أي شيء؟

– ألم يراودك حلم وأنت تطير مع فتاة ساحرة.. أليست لديك فتاة خيالية تعيش في أفكارك السامية، ألم ترَ فتاة وأعجبتك، ألم تشم عطرهن وأنت تمشي في الشارع، أنفاسهن الخجلة.. نظراتهن.. ألم تحظ بشيء منهن.. عليك أن تعرف يا صديقي، أننا كلما ابتعدنا عن النساء، ابتعدنا عن صفاتنا الإنسانية، وافتقدنا تلك الحواس التي تتحسس كل شيء جميل، لو كنا بلا نساء، لما صنعوا العطر والملابس الفخمة، لقد كان لي نصيب جيد من تلك الحياة المتعة، كانت قصيرة جداً، الظلام فرح، والساعات بالونات ملونة، عليك أن تجرب ذلك يا صديقي، إنها أيام قليلة، علينا أن نحصل على متعتنا فيها، قبل انضمامنا للطابور الذي سيصطف به الجميع..

– يبدو أنك ثمل جدا.. لتتكلم هكذا.

كنت أعتقد أننا رسمنا حياتنا على أن نقتل لنعيش، نتكلم معاً، نجلس في غرفتنا، نذهب لبائع نقيع الزهور، نزور الفندق بين فترة وأخرى، وهكذا حتماً ستنتهي.

في الحقيقة النساء يشكلن إحساس غامض لدي، طعم لا أعرفه، ورائحة لا تذكرني بشيء، علاقة نظرات غير مقصودة تربطني بهن، لكنه الآن يعاني من نوبة بمرضه الذي أسميه، مرض الذكريات، ما ان

يأتيه حتى يتكلم وكأنه مصاب بحمى شديدة.

استغرقنا في الكلام تلك الليلة الوديعة، كانت ليلة تستحق السهر والسمر، بوفرة نسيمها الناعس، ورائحة شجيرات الياسمين، قشور المحاصيل التي ينعم بها الهواء، تدور في الفراغات الواسعة، وتلتصق بنا، حسبتها ليلة متفائلة، قلت له: "أتمنى لو كانت جدتي تقص لي حكاية الآن، وأتمنى أن تكون حكاية سعيدة".

لا أنكر أني شعرت بالخوف عليه في ذلك المساء، عندما بَدأ بتنظيف المسدس، جلس على الأريكة ووضع سيجارة في فمه، ثم أخرج علبة رصاصات من تحت الأريكة، بقيت أرمقه ولم أتدخل، فعادة هو من يتولى أمر تنظيف السلاح، قال لي وهو منشغل: "في هذه المرة أريد أن أطلق أكثر من رصاصة، فبعض الجثث لا تستحق الرحمة"

– ليس من قوانينا ؟

– قبل أن تأتي معي، كنت حريصاً على أحد قوانيني، وهو أن أعمل لفردي، طيلة حياتي.

قال إنه سينفذ هذه المهمة، وأنا المراقب، غايتنا هذه المرة مختلفة، وهدفنا مختلف أيضاً، راقبته وهو يعمل، نظرت لعينيه وهو يعبئ المسدس بالرصاص، إنهما تتوعدان بالويل، الويل لمن أراد خيانتنا.

بعد انهائه لعمله، رفع السلاح بيده اليمنى عن الطاولة ليراه بشكل

أفضل، و قال: "اليوم ارتكبنا خطئاً كبير -صمت قيلاً ثم أكمل بحدة- وغداً سنرتكب خطئنا الأكبر"

أوقف الرجل العبوس جهاز التسجيل، بعد أن عقبت على تلك الجملة التي قالها صديقي: "هذا كل ما بوسعي ذكره، كانت تلك الجملة آخر ما سمعته منه، نفذ المهمة لمفرده وفق قوانين لم يخبرني بها، تركني نائماً وغادر مصطحباً المسدس، إنها ليست عادته أن يغادر من دوني، وليس هذا اتفاقنا.

انتظرته حتى العصر، ثم قررت الذهاب للفندق، عادة ما كنا نستذكر بعض الأيام هناك، ونشم رائحة جدتي، استقبلني نباح الكلاب عند اقترابي للفندق وهي منتصبة وتنظر نحوي، مررت بجانبها ودخلت الحديقة من بابها الواقع نصفه على الأرض، سرت بين جذوع السدر الخالية الأوراق، شجيرات شوكية لم يغرسها أحد هنا، بقايا الأعمدة الرخامية، النافورة التي كثيراً ما كان منظرها يأخذ جدتي لأيام ليس بوسعها أن تفصح عنها، فقط كانت تتأوه لذكرها.. يا لهذا المكان الصامد، لا زالت رائحة المسك تنبعث من غرفة السيدة العجوز، ووقع خطواتها البطيئة يهمس في الظلام، وصرخاته الوحيدة تلك، لازالت تدور، غريبة كصاحبها، الذي هجرني، وهجرت أمل العثور عليه، دخلت غرفة جدتي، وجدت كرسيها الهزاز مستلقٍ على الأرض، رفعته ووضعته

قبالة النافذة التي تخلت عن زجاجها كله، تلك النافذة التي كانت تعكس لها صورتها كلما حدثتني عن ماضيها. حاولت الصعود للطابق العلوي للغرفة 101 لكن تبين أن السلم فقد الكثير من درجاته، استطعت صعود ثلاث درجات فقط رفعت عيني ولم أرى غير السواد يغطي أبواب الغرف الموصدة.

أغلقت الباب الخشبي للفندق بعد خروجي، وعلقت فوقه قطعة خشبية مستطيلة وطويلة، أتممت عليها حفر عبارة "مقبرة السيدة العجوز".

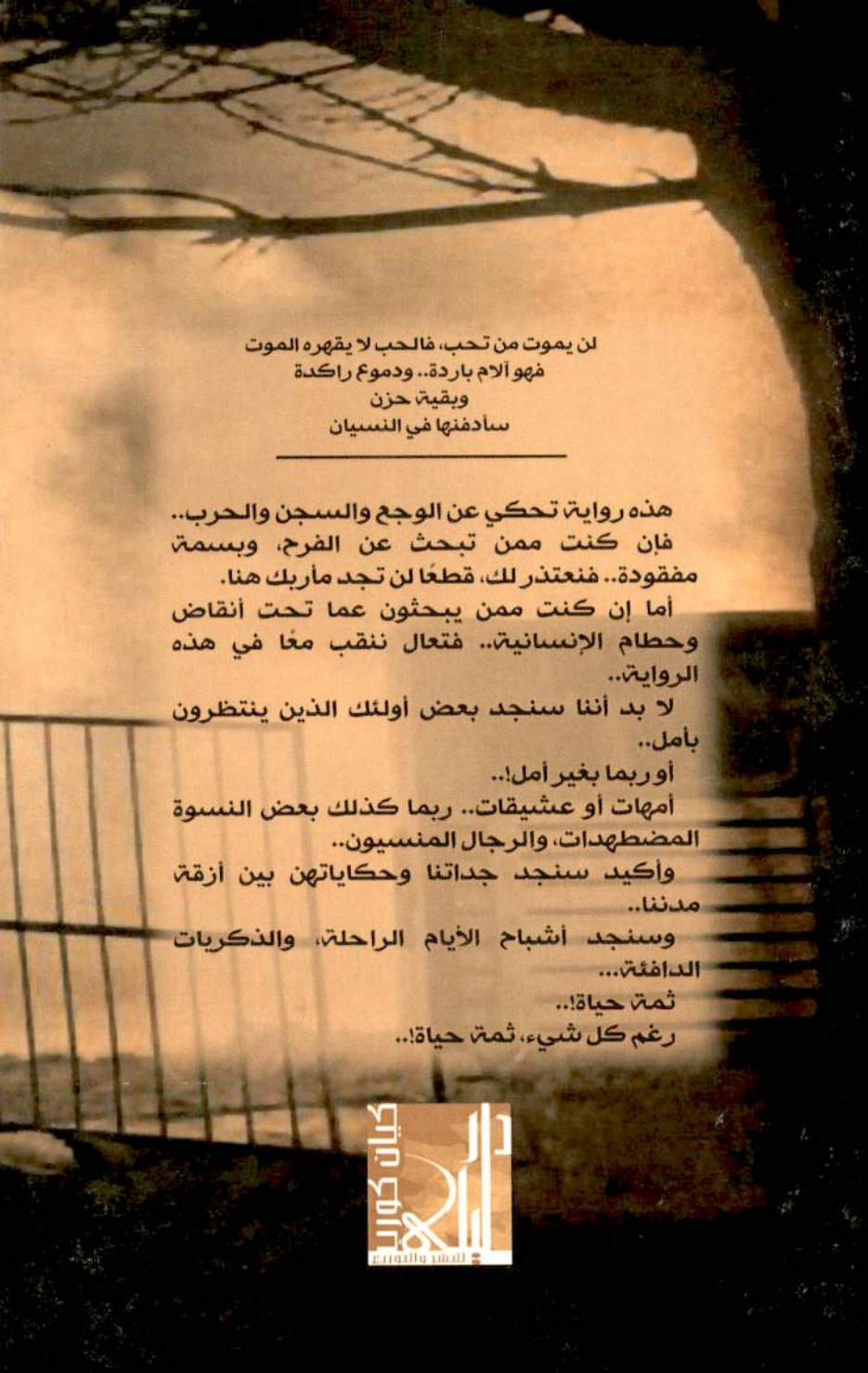

لن يموت من تحب، فالحب لا يقهره الموت
فهو آلام باردة.. ودموع راكدة
وبقية حزن
سأدفنها في النسيان

هذه رواية تحكي عن الوجع والسجن والحرب..
فإن كنت ممن تبحث عن الفرح، وبسمة مفقودة.. فنعتذر لك، قطعًا لن تجد مأربك هنا.
أما إن كنت ممن يبحثون عما تحت أنقاض وحطام الإنسانية.. فتعال ننقب معًا في هذه الرواية..
لا بد أننا سنجد بعض أولئك الذين ينتظرون بأمل..
أو ربما بغير أمل!..
أمهات أو عشيقات.. ربما كذلك بعض النسوة المضطهدات، والرجال المنسيون..
وأكيد سنجد جداتنا وحكاياتهن بين أزقة مدننا..
وسنجد أشباح الأيام الراحلة، والذكريات الدافئة...
ثمة حياة!..
رغم كل شيء، ثمة حياة!..